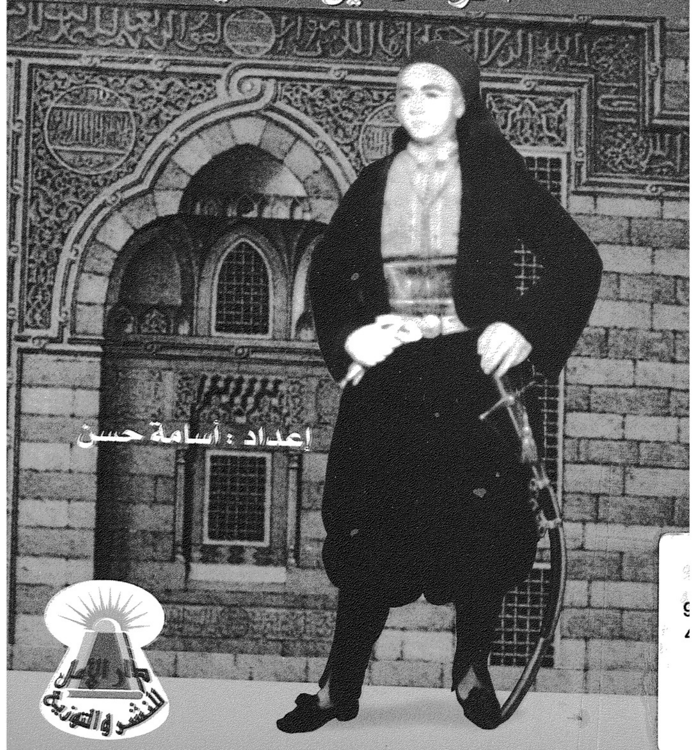
طومان باى

آخر سلاطين المماليك



إعداد : أسامة حسن

طومان باى

آخر سلاطين المماليك



الناشـــــر:	دار الأمل
العـنــوان:	٨ ش عبد العزيز حامد ـ أول الملك فيصل
تليفـــون:	٥٨٦٠٨٩٢
رقم الإيداع:	٩٩٠٣ / ٩٩
الترقيم الدولي:	977 - 5823 - 59 - 5
طـبــع:	مطابع الوادى الجديد
العـنــوان:	دار السلام

غـــلاف:	مجدى الطويل
جمع تصويرى:	أرمس للكمبيوتر
العـنــوان:	٣٢ ش على عبد اللطيف ـ مجلس الشعب
تليفـــون:	٧٩٦٤٤٠٤
الطبعة الأولى	١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠م

طومان باى

آخر سلاطين المماليك

إعداد : أسامة حسن

دار الأمل

للنشر والتوزيع

العنوان : ٨ شارع عبد العزيز حامد ـ أول الملك فيصل ـ جيزة .. ت: ٥٨٦٠٨٩٢



تمهيد

طومان باى آخر سـلاطين المماليك فى مصر صاحب عقل وفـروسية وشجـاعة، ومن ينظر إليـه يحس فيه بـالسكينة والوقار وقد لـقى نهاية مؤثرة إذ شنـقه السلطان سليم، وسـيرة طومان باى هـى جزء هام من عصـر عجيب جـدًا وهو عصـر سلاطين المماليك الذين هـم من الرقيق ، والمماليك بنوا دولة من أعظم الدول فى التاريخ، احتلت الصدارة فى حكم العالم الإسلامى، واتخذوا من مصر قاعدة لأمبراطوريتهم المترامية.

وبنهاية طومـان باى المؤثرة دخلت مصر فـترة مظلمة تعـتبر فـترة اضمحلال قاسية بعد أن ازدهرت فى عصر المماليك .

المؤلف

المماليك فى مصر

بعد أن أقام صلاح الدين الأيوبى دولة موحدة تمتد من طرابلس غربًا حتى الفرات ودجلة شرقًا ، فضلا عن امتدادها إلى الحجاز واليمن فى الجنوب، ولكن الدولة سرعان ما تمزقت بعد موت صلاح الدين:

وترك صلاح الدين سبعة عشر ولدًا ذكرًا بالإضافة إلى الأخوة وأولاد العم، وأدى ذلك إلى وقوع خلاف بينهم ولم يقنع أحد بما فى يده، وكونوا إمارات متشاحنة وكل واحد منهم جعل له وصيًا أو أتابك على أبنائه وهذه هى الطريقة السلجوقية السائدة فى هذا العصر، ولكن الأتابكة سعوا إلى مزيد من السيطرة وأدى ذلك إلى مزيد من التشاحن فيما بينهم، وكان أقوى أفراد الأسرة الأيوبية هو من يتولى حكم مصر وكان يعرف بالسلطان، وكان السلطان يعتمد فى تأييد نفوذه على المماليك.

وكلمة مملوك فى أصلها اللغوى من الفعل ملك وتعنى الرقيق، وهو من يشترى بقصد التربية والاستعانة بهم كجند وحكام، وذلك على عكس العبيد ولفظة العبيد تعنى العبودية والعبد يولد من الرقيق بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويباع.

وظهر نظام المماليك بوضوح على يد الأيوبيين فى مصر إلا أن ذلك يرجع إلى قبل ذلك فى عصر الأمويين ومن بعدهم العباسيون الذين توسعوا فى شراء المماليك من وسط آسيا وبذلوا فى ذلك المزيد من الأموال.

وأدى ظهور المغول إلى الإكثار من شراء المماليك فى عصر الأيوبيين وزادت أعمال تجار الرقيق فى مصر وحصل تجار المماليك على المزيد من الربح؛ نتيجة

لكثـرة المشاحنات بين ملوك الأيوبيين، وكـان سلطان مصـر الأيوبى يشتـرى منهم الآلاف، وكان المملوك إذا كان صـغيراً أعطى للحريم لتربيتـه، وإذا كان شابًا قويًا يعلم ويعيش فى القصر مع سلطان البـلاد ثم يعتق، وكان السلطان يقوم بالإشراف على تربية المماليك مما جعلهم يتميزون بالأخلاق الكريمة.

وقد سنحت الفرصة للمماليك فى مصر فى آخر أيام الأيوبيين ليحكموا البلاد بدلاً من الأيوبيين، وذلك عندمـا جاءت حـملة لويس التـاسع واستطاع المـماليك هزيمة الحملة وأسر ملكها، وأصبحت الدولة فى قبضة المماليك، وما لبثوا أن قتلوا توران شـاه آخـر سـلاطين الأيوبيين وهو ابن الملك الصـالح أيوب، وقـيـام دولة المماليك هو أحد نتائج الحملات الصليبـية الأولى وكذلك حروب المغول، وانتصار المماليك فى جـولات كثـيرة على المغول مـثل موقعـة عين جالوت ودفـاعهم عن الإسلام بحماس لا مثيل له وطد أقدامهم فى حكم مصر والشرق الإسلامى.

ومع دخول المغـول العراق بقيادة هولاكـو وقتل آخر خليفـة عباسى فيـها فإن المماليك سـعوا إلى إحياء الخـلافة العباسـية فى مصر وأصـبح الخليفة نفسـه تابعًا لسلطان المماليك وكان عمل الخليفة هو إصـباغ الشرعية على حكم السلطان وجعل السلطان فى نظر المسلمين جميعًا حاميًا للشرعية الإسلامية.

مع سيطرة المماليك على الحكم أدى ذلك إلى الإكثار من طبقتهم، وكثر نشاط تجار المماليك وكـان معظمهم من الأوربيين النصارى أو من اليهود، وكـان بعضهم من الإيرانيين، وكـان هؤلاء التـجار يأتـون بالمماليك فـى أغلب الوقت عن طريق البـحر حـيث يدخلون إلى القـاهرة عن طريق ثغـرى دميـاط والإسكندرية وكـان السلاطين يستقبلون التجار كما يستقبلون كبار الشخصيات ويمنحونهم الخلع.

وكان المماليك فى العادة يشترون وهم صغار السن ويوضعون فى أماكن خاصة تسمى بالطباق أو الأطباق مفردها طبقة أو طبق وهى المدارس العسكرية وتوجد فى أماكن متـفرقة فى القاهرة وخـارجها وبلغ عددها اثنى عـشر طبقًا أو أكـثر، وكان

بعضـها يسع ألف مملوك ،ويسكن المماليك الطباق،ويتعلـم المملوك الخط والقرآن والشرع، وبعد سن البلوغ يتعلم الحرب وضـرب السيف ورمى السهم والفروسية، وكان المماليك لهم اهتمام خاص بكرائم الخيل يبعثون فى طلبها من كل مكان وأقام المماليك مباريات الفروسية أمام السلطان والأمراء، وظهرت أنواع من الفروسية مثل السباق بالخـيل دون سرج،ولعب الكرة على ظهور الخيل بضربهـا بالصولجان وهى العصا أو حتى لعبة اسمها القبق، والقبق اسم تركى لنبات القرعة الصلبة.

بالإضافة إلى مـا سبق فإن المماليك كان يشـرف عليهم متخصصـون فى الفقه ويعود المماليك على الصلوات والأذكار، حيث كان التصوف منتشراً بين المماليك، وكان الإشراف العام على الـطبق لشخص يسمى مقدم الطباق وله الحق فى مـعاقبة المماليك.

وكان تعـليم المماليك يخـضع لنظام دقيق مـرتب فليس لهم أن يخـرجوا من الطباق إطلاقًا، أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى ويذهبون إلى الحمام مرة كل أسبوع ويتسلمون كسوات فاخرة ويؤاخذون بشدة فى حركاتهم وسكناتهم، فإذا اقترف أحدهم ذنبًا أو خرج على النظام أو الآداب قوبل ذلك بعقوبة شديدة، وكان السلطان يتفقد أحوال الطعام والمبيت وغير ذلك.

والدراسة فى الطباق تسـتمر ما يقرب من أربعـة أو خمسة عشـر شهراً، وإذا انتهت الدراسـة أعتق المملوك، ويكون العـتق لهم جملة ويعـد له احتفـال خاص يحضره السـلطان والأمراء، ويسلم المملوك سلاحًا وفـرسًا ولباسًا خـاصًا وإقطاعًا يبقى له مدى الحياة.

وقد ظهرت فى مصر دولتان للمـماليك: الأولى المماليك البحرية (٦٤٨ هـ - ٧٨٣ هـ)، وهى تسمية نسـبة إلى أن غالبية سلاطينها مـن المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون وأسكنوهم قلعة فى جزيرة الروضـة بالمنيل بالنيل ونسبوا إلى هذه القلعة البحرية التى كان الملك الصالح الأيوبى قـد بناها لهم وكان أغلب عناصر المماليك البحرية من التركمان أو التركمانية.

والثانية دولة المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٣) وهى تسـمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينهـا من المماليك الذين كـانوا يسكنون بروج القلعة على جـبل المقطم وقت حكم المماليك البحرية.

ويعتبر قلاوون البحرى أول من اسـتكثر هذا النوع من المماليك، فلما ضعفت قوة البحرية قام بانقلاب عسكرى ضدهم واستولى على زمام الحكم.

وقـد كان أبرز عنـاصر الممـاليك البـرجـية من الجـركس أو الشـركس وتعنى القوقاز.

وهكذا استمـر المماليك فى الحكم سلطانًا بعد سلطان، وكـان آخرهم طومان باى.

* * *

طومان باى سلطان

لا توجد معلومات عن أصوله الأولى ولا يعرف المكان الذى نشأ فيه، ولكنه من بلاد الجركس الذين هم من أصل عربى، وأنهم ليسوا من الأتراك الخلص ولا يعرف إذا كان اشترى من أسواق مصر أو خارج مصر، ولكن الأمير قانصوه قد اشتراه لقرابته، وكان يطلق عليه طومان باى بن قانصوه ولكن من المؤكد أنه لم يكن ابنا له ويقال: إنه ابن أخيه.

ولكن من المؤكد أنه ولد عام ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م وشنق فى سن أربعة وأربعين عامًا فى يوم الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول من سنة ٩٢٢هـ / ١٥ سبتمبر سنة ١٥١٧م .

وأعتق طومان باى مع زملائه من المماليك بعد أن تعلم وتثقف وتهذب فى الطبق ،وأعتق فى عصر محمد بن قايتباى الذى تولى فترة قصيرة قبل أن يتولى السلطان قانصوه الغورى فى ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م الذى كان قريبه، ويوصف طومان باى بأنه متوسط الطول، ذهبى اللون واسع الجبين أسود العينين والحاجبين واللحية.

تولى طومان باى الوظائف الكبيرة حيث تولى العديد منها لمدة طويلة قبل أن يتولى سلطنة البلاد.

وأولى الوظائف التى تولاها وظيفة «أمير جمدار» وهى لفظ فارسى بمعنى المسئول عن ملابس السلطان ثم تولى وظيفة «أمير عشرة» بمعنى أنه أصبح تحت إمرته عشرة مماليك على الأقل وعدد كبير من الأجناد لا تقل عن ألف، ثم تولى رتبة أكبر وهى «أمير طبلخاناه» بمعنى أنه أصبح تحت يده عدد من المماليك لا يقل عن أربعين وله حق دق الطبول تشريفًا له وتحت إمرته عدد كبير من الأجناد.

وبعد ذلك تولى منصب شاد الشراب خاناه وهو أمين على الخزانة أو البيت السلطانى، والخزانة تحتوى على أدوات الصينى والكيزان وطاسات نحاسية كما توضع أنواع الأشربة والحلوى والفواكة والسكر والأدوية وتولى بعد ذلك وظيفة الدودار الكبير وهو اصطلاح يعنى من يحمل دواة السلطان وكان عمله يحمل طابعًا سياسيًا وإداريًا وقد أظهر طومان باى كفاءة نادرة فى هذه الوظيفة، وأضاف إليه وظائف متعددة أخرى منها منصب إستادار العالية، ووظيفته الأستادارية العالية وهى لفظة فارسية تعنى المشرف على جميع البيوت السلطانية أو الخانات حيث تعددت هذه البيوت وبلغت درجة من الغنى كبيرة، بالإضافة إلى الإشراف على بيوت الطست خاناه التى فيها ثياب السلطان، والفراش خاناه التى فيها المفروشات والخيام، والسلاح خاناه التى فيها أنواع السلاح، والركاب خاناه التى فيها ما يتعلق بالخيل من معدات الركوب، والطبلخاناه التى توجد فيها الآلات الموسيقية والشكار خاناه وهى بيوت الطير وكل ما يتعلق بها وبخاصة تلك التى تستخدم فى الصيد.

وأضاف السلطان قانصوه إلى طومان باى كاشف الكشاف المتعلقة بالشئون الزراعية مثل شق الترع وإقامة الجسور وكان تحت يده خمسة من كبار الكشاف ثلاثة بالوجه القبلى، واثنان بالوجه البحرى غير أعداد لا تحصى من الموظفين الذين يتعلق عملهم بالأرض مثل القياسين أو المساحين والكيالين والشيالين الذين يحملون الإنتاج الزراعى فى السفن إلى القاهرة.

وأضاف إليه السلطان منصب نائب الغيبة الهام على أساس أن يقوم مقامه فى غيبته عن البلاد وهو مثل نائب السلطنة وبعد أن تولى المنصب أصبح على رأس رجال القصر والدولة، وله الحق فى تعيين الأمراء فى المناصب الكبرى ومنح الإقطاعات،وله الحق فى النظر فى المظالم .

أظهر طومان باى المزيد من الكفاءة حيث حافظ على البلاد فى غياب السلطان وحافظ على الجبهة الداخلية ولم يحدث شغب فى غيبة السلطان وضبط أحوال البلاد جيداً وكان محبيا للرعية، وكان يثير الحماس والتفاؤل، وكان

يسير فى مواكب رسمية بالطبل والموسيقى، وأصبح طومان باى بالفعل مشرفًا على معظم وظائف الدولة ولم يبق أمامه إلا منصب السلطنة.

وأصبحت مصر خالية من السلطان منذ سفر الغورى إلا أن السلطة كانت فى يد طومان باى ونتيجة لقتل قانصوه الغورى فى حربه مع العثمانيين، وكان الغورى أوصى جميع أمرائه أنه إذا أصابه شىء أن يسلطنوا عليهم طومان باى فقالوا لطومان باى: «ما عندنا سلطان إلا أنت».

وامتنع طومان باى عن قبول السلطنة خوفًا من غدر المماليك، وتعودهم على العصيان إذ إن خيانتهم للسلاطين كانت من سمة الحكم المماليكى فى مصر، وكان المتنافسون يدخل بعضهم على بعض وهم يلبسون الدروع تحت الثياب خوفًا من الغدر وكان المنتصر يفعل ما يشاء بالمهزوم، ولا شك أن نهاية الغورى الحزينة كانت أساسها الخيانة من جانب الأمراء فى أثناء المعركة الحاسمة مع العثمانيين.

وقد أصبح طابع الغدر سمة المماليك؛ لأن مبدأ الوراثة كان غير مقبول وقد بذلت محاولات لتوارث السلطنة فى عهد بيبرس وقلاوون إلا أن الوراثة لم تمتد إلى أكثر من ابن السلطان ولكن السلطان الناصر محمد الذى تولى من بعده ثمانية من أولاده وأربعة من أحفاده، وامتنع طومان باى عن قبول السلطنة مدة خمسين يومًا إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط رجال الدين فى مصر وكان رجال الدين فى مصر هم السبب فى اختيار طومان باى للسلطنة، ويرجع ذلك إلى ما كان يتحلى به طومان باى من صفات لأنه كان غير متكبر أو متجبر وكان حسن السياسة وكان زائد الأدب والسكون والخشوع والخضوع،ملازمًا لزيارة المشايخ ولم يظهر عنه شىء من الأفعال الردية فلم يشرب الخمر وكان يقتصر على زوج واحدة «خوند» وهى ابنة أمير مملوكى مثله.

وطومان باى شديد الحب والولع بالآداب والعلوم والشعر ومغرم بالتاريخ والسير ويحب اللغة العربية.

ومبايعــة طومان باى بالسلطنة كانت فى يوم ١٤ من رمــضان سنة (٩٢٢هـ / ١١ أكتوبر ١٥١٦م) وتمــت بشكل مختصر بــسبب ظروف الحرب ضد العثــمانيين وركب طومــان باى من بيتــه إلى مكان الاحتــفال بالقلعــة، وقد لبس علــى رأسه عمامة مدورة سوداء وعلى جسده رداء بسيطًا أبيض، وعقدت بيعته فى مكان اسمه «إيوان» يقع عند باب السلسلة.

وقد أحضــر لطومان باى خلعة السلطنة وهى عمامــة سوداء تعرف بالتحفــيفة الكبرى أو ما كــان يسمى أيضًا «الناعورة» وتكون مكان التاج للملوك مــصر أما على الجســد فلبس حلة الملك أو الكاملية وهى رداء عــربى من حرير أسود وأحــضر له السيف المذهب وتقــدم الأمراء والعسكر الموجودون فى الأيوان لتــقبيل الأرض بين يديه ثم قبلوا يده.

وأمــر طومان باى بمنح والخــلع على نواب القضــاة والأمــراء وكبــار الموظفين وتتميز الخلع بوجود اسم السلطان منقوشًا عليها حيث اشتهرت مصر بصنعها.

وبعد ذلك خرج الســلطــان وحوله الأمراء ورجال الدولة وقدامــهم أبو الخليفة فى موكب بشعار السلطنة من بنود وأبواق وطبول.

وحينمــا حان وقت صلاة الجمــعة خرج موكب السلطان من جــديد فزينت له القاهرة وارتفعت أصوات أهلها بالدعاء.

وأقيمت لزوجــته «الخوند» مراسم خاصة فى هذه المناســبة فطلعت إلى القلعة بالفوانيس والمشاعل ومعها نساء السلاطين «الخوندات» لا سيما نساء الغورى ونساء الأمراء.

بتولية طومان باى السلطنة تلقب بألقابهــا، وأصبح الخطباء يخطبون باسمه من منابر المساجــد وضربت باسمه السكة وهى العــملة، مثلما كان يحــدث لمن يتولى السلطنة ويقوم مــثل السلاطين بالرسوم الملكيــة وقد كان طومان باى يقــوم بالفعل

برسوم السلطنة فى أثناء غيبة الغورى لا سيما فى الاحتفال بكسر الخليج أو كسر السد ـ ويخرج موكب رسمى متجهًا لمقياس النيل الموجود بالروضة وحينما يصل إلى المقياس يعمد إلى تعطيره بالطيب، اعترافًا بوفاء النيل، فعطر من إناء خاص عامود المقياس المثمن وهو من الرخام الأبينس ثم توضأ بعد وصلى ركعتين ثم أقيم سماط فى قاعة المقياس ووزعت الحلوى .

وتوجه إلى كسر أو فتح السد الواقع على الخليج فى غربى القاهرة وكان فتحه إيذانًا بفتح جميع السدود فى القطر كله لإرواء أرض مصر المزروعة.

إلا أن الأمور تغيرت بعد توليه السلطنة بسبب الهزيمة وظروف الحرب مع العثمانيين بحيث أن اختصرت الرسوم السلطانية، ولم يقم معظمها، كما اختصر موكب العيد ولم يقم فيه بالرسوم الخاصة وحتى الاحتفال بإرسال الكسوة إلى الكعبة لم يقم مع أن مصر تعودت عليه يرجع ذلك إلى الحرب مع العثمانيين.

ويعتبر طومان باى السابع والأربعين من سلاطين المماليك فى مصر والأخير فى دولة المماليك.

* * *

أحوال مصر

قبل أن يتولى طومان باى السلطنة كانت البلاد فى أقصى درجات التدهور وكانت الدولة المملوكية فى آخر حياتها، ولم يكن طومان باى نفسه هو المسئول عن تدهور الدولة وكان الفساد قد استشرى فى كيان الدولة وكانت نهاية حتمية لها، وكانت طبيعة الحكم المملوكى أنه لا يرعى إلا مصلحته فى المقام الأول، مما جعل الناس يقفون فيه موقفًا سلبيًا حينما دخل العثمانيون مصر وكانت دولة المماليك يحكمها أرباب السيوف الذين استحوذوا على السلطة.

وترتب على ذلك أن الطبقة الحاكمة احتفظت لنفسها بالوظائف الكبرى وتمكنت من خلالها من السيطرة التامة على البلاد سياسيًا وعسكريًا، وكان السلطان يتولى الحكم ويشغل هذه الوظائف الثابتة المحدودة بأعوانه ويقوم بعزل من كانوا يشغلونها.

وما إن تولى طومان باى السلطنة حتى عين فى وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة بعض الأمراء من أعوانه.

ولكنه أبقى على بعض الأمراء الأقوياء من أعوان السلطان الغورى على الرغم من إحساسه وشكه فى إخلاصهم له ولحكمه.

ومع أن طومان باى قد تولى السلطنة بناء على تأييد المصريين وأنهم هم الذين سعوا إلى توليته فإنه مثل سابقيه من سلاطين المماليك لم يحاول اشراكهم فى المسئولية السياسية معه فى الحكم ولم يعمل على إعادة منصب الوزير الذى كان يختار عادة من بين المصريين، حقًا إنه فى ظل المماليك البحرية وحتى البرجية كان يوجد منصب الوزير أحيانًا إلا أن الوزارة على عهدهما أصبحت غير مستقرة بسبب

استبداد السلاطين مما أوجد بالتالى حالة من التراخى فى شئون مصر الإدارية، وكان الوزراء يتغيرون بسرعة مذهلة ولعل هذه الحالة التى وصلت إليها الوزارة جعلت طومان باى مثل سابقيه من السلاطين يشرف على كل شىء فى الدولة.

ومع ذلك فإن الشيخ أبا السعود، وهو من رجال الدين المصريين والذى كان السبب فى تولية طومان باى، أراد أن يشاركه فى مسئولية الحكم ويتصرف معه فى أمور الدولة من عزل وولاية، ويبدو أن طومان باى قد استجاب له بالفعل فسمح له بأن يفعل ما يشاء بموظفى الدولة الذين أصبحوا رهن إشارته حتى أنه أمر بشنق أحدهم مما جعل السلطان يحد من نفوذه نهائيًا، ويسيطر على الحكم بمفرده مثل سابقيه من السلاطين.

وقد اهتم طومان باى بتثبيت نظام قضائى سليم فى مصر يتبع السلطة العليا مباشرة، هو نظر المظالم الذى يعنى بحقوق الناس من تعدى الدولة وموظفيها فضلا عن وضع حد للفساد فيها، وكان طومان باى يقوم بنظر المظالم قبل توليه السلطنة لذلك عندما أصبح سلطانًا سعى إلى إبطال كثير من المظالم . بحيث أصبحت دولته تسمى الدولة العادلة.

وجعل لنظر المظالم مكانًا خاصًا بالقلعة مركز الحكم المملوكى، وكانت أغلب المظالم تأتى عن طبقة الفلاحين نتيجة زيادة الضرائب التى أثقلت كاهلهم فضلاً عن سوء المعاملة.

وكان المماليك، منذ قيام دولتهم فى مصر، يستحوذون على جميع أراضيها المزروعة بحيث أصبحت أشبه بملكية خاصة على حسب درجاتهم من السلطان إلى أصغر مملوك.

ونتيجة لذلك أصبح فلاحو مصر عبيدا للأرض، لذلك فإن طومان باى رفع كثيرًا من الظلم عن الفلاحين وأخرج من كان فيهم فى السجن نتيجة لاستبداد المماليك.

وجدت مظالم كثيرة بسبب جشع المماليك واستطالتهم على حقوق الناس،

فالمماليك بمختلف طبقاتهم تميزوا بالميل إلى اغتصاب الأموال وتكديس الثروات من أى باب حلال أو حرام. والتهافت على جمع الأموال، وكان طومان باى يرفض أن يأخذ أموال الناس قهراً حتى لا تحدث فى أيامه مظلمة أبدا على حد قوله.

وإذ انشغل المماليك بالحرب وخرجوا فى الحملات فإن عبيدهم وغلمانهم ينهبون فى المدن على أساس أن البلاد خالية من أى رقابة لذلك فإن طومان باى حتى وهو أمير غيبة كان يمنع المماليك الجلبان وهم الذين يدرسون فى الطباق وهى المدارس الحربية الخروج منها، إذ كانوا ينزلون من طباقهم لارتكاب الجرائم.

وترتب على هذه الفوضى ، أن لحق الخراب بمعظم مدن مصر الكبرى مثل الإسكندرية ودمياط وغيرهما من المدن.

وكان المماليك أنفسهم يميلون إلى أذى الناس حتى أنه كان نادراً ما يقال عن أحدهم إنه قليل الأذى وإن كان قليل الأذى يقال أنه لا بأس به، حتى أن الغورى وصف بالظلم وأنه حكم خمس عشرة سنة كان كل يوم فيها بألف سنة مما يدل على ثقل حكمه على الناس، وعلى العكس فقد وصف ابن إياس طومان باى بأنه كان لين الجانب قليل الأذى غير متكبر ولا متجبر.

وقد اهتم طومان باى بنظام دينى كان من ركائز الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى وهو : «الحسبة » التى هى خدمة لمصالح سكان المدن على الخصوص، من الناحية الاقتصادية أو حتى من الناحية الأخلاقية ، على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فكان طومان باى يعالج معايش الناس فى القاهرة بالتسعيرة الجبرية فقد عاقب سمساراً للغلال لأنه رفع سعره، ولعل اهتمامه بالناحية الأخلاقية والخلاصة أن طومان باى سواء فى غيبة السلطان الغورى أو فى وقت سلطنته كان رءوفًا بالرعية.

ومن أسباب تدهور الأحوال فى عهد المماليك فى مصر أن العرب والعربان تنافسوا مع المماليك فى السيطرة على مصر واستغلالها ونهبها، وكان هؤلاء العرب قد سكنوا مصر منذ الفتوح الإسلامية.

وكان العرب قد اعتبروا المماليك غـرباء عن البلاد واعتبر العرب أنفسهم أحق منهم بهـا وحينمـا تسلطن أيبك وهو أول سلطان مملوكى فى مـصر لم يـرضوا أن يحكم المماليك وثاروا فى البلاد وقطعوا الطريق وانضم إليهم العربان فى كل مكان حتى بلغ عـددهم مائة ألف فخـرج إليهم السلطان أيبك بممالـيكه وقاتلهم، ولكن زعيم العربان حصن الدين ثعلبة استطاع الفرار وكان العربان قد وجدوا أنه لا فائدة من مقاومة المماليـك فسعوا إلى الاتفاق معهم مع اقتسـام البلاد حيث أسرع أيبك بوعدهم بالاقطاعات والأمان ولكن أيبك حينما جـاء زعماؤهم للاتفاق معه قتلهم وشنقهم وأمر مماليكه بمعاملة العرب بقسوة وضاعف عليهم الضرائب.

ومع ذلك استمـر العربان فى إثارة القلاقل وحرق الأخضـر واليابس حتى أن السلطان الناصر بن قلاوون ذهب بنفسه إلى الصعيد ليعيد إليه حالة الاستقرار.

وكان السلطان الغورى قد بالغ فى تأديب العربان وقتل عدداً كبيراً حتى أصبح لا يوجد عربى منهم إلا وقتل له واحد من أقربائه كما سجن عدداً كبيراً.

كما أرسل الغـورى طومان باى ضدهم الذى فاجأهم وقـبض على العديد من مشايخهم وكاد السلطان يشنقهم ولكنه تحت تحريض طومان باى اكتفى بسجنهم.

والواقع أن دور العربان فى مـصر كان سببًـا فى تدهور أحوالها بسبب فـتنتهم التى لم تنقطع بحـيث أنهم كانوا عـاملاً أسـاسيًا فى زوال دولـة المماليك حيـنما أُتيحت لهم الظروف بوصول العثمانيين إلى مـصر فهؤلاء العربان كانوا السبب فى خراب مـصر وضيـاع دولة المماليك، ويضاف إلى ذلك أن الحـالة الاقتصـادية قد بلغت هى الأخرى حـالة غاية فى السوء،نتيـجة لعوامل متعـددة وذلك لسوء حظ طومان باى .

وكان المؤكد أن انحسـار التجارة العالمية وما كانت تدره من مـال وفير لدولتهم السبب الرئيـسى فى سوء الحالة الاقتـصادية، فقد كـانت مصر تقوم بنقل الـتجارة العالمية بين الشرق والغرب.

فقـد كانت مصر تنقل إلى أوروبا توابل الـهند والصين، وقد ترتب على ذلك انتعاش التجارة إلى أوروبا عن طريق مصر.

وفى أول الأمر فرض المماليك الضرائب الباهظة على هذه التجارة وإن كانوا ما لبـثوا أن قـامـوا باحتكارهـا لأنفسـهم عن طريق التـجار أو عـن طريق مشـرفين متـخصصين يقـيمون فى مـوانئ مصر الكبـرى مثل الأسكندرية العظمى ودمـياط وعيذاب. ولما احتكر المماليك هذه التجارة أصبح لهم أيضًا أسطول كبير يقوم بنقل التجارة.

وليس أدل على انتعاش الحـياة الاقتصادية فى أيام المـماليك من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك مثل دكاكين وحوانيت ووكالات وفنادق وكانت الفنادق توجد فى كل أنحاء المدن المصرية من الأسكندرية إلى أسوان.

ولكن هذا الازدهار الاقتصادى فى عصر المماليك حدثت له نكسة قضت عليه تدريجيًا منذ الغـزو المغولى الذى فتح طريق آسيا إلى أوروبا مبـاشرة، وبخاصة أنه ربط بين الصين والهند بالمسالك البرية إلى البحر الأسود.

إلا أن الضربة القاضية للازدهار الاقتصـادى أتت على الخصوص حينما قامت دول أوروبا باستكشـافات بحرية كـان قصدها البحث عـن طريق بحرى إلى الهند والصين غير طريق البحر الأحمر الذى يقع فى أملاك الدولة المملوكية.

وكذلك عاشت مصـر أسوأ أحوالها المعيشيـة نتيجة للمجاعات المتـعددة، فقد أُنهكت المجاعات مـصر طوال العصر المملوكى، وكان أغلبهـا يحدث بسبب توقف النيل عن الفيضان فيتوقف الزراع عن الـزراعة وترتفع أسعار المواد الغذائية والقوت الضرورى وكـان يصاحب هذه المجاعـات تفشى الأوبئـة وبخاصة الطاعـون وكان أشهرها الطاعون الأسود.

وكذلك وقع الزلازل فكانت السـبيوت ومآذن المسـاجد تتسـاقط. هذه الأحوال السيئة فى مـصر جعلت البلاد والدولة المملوكية فى أشد حالات الإعـياء والانهيار فكان ذلك من سوء حظ طومـان باى الذى تولى السلطنة عقب تراكم جـميع هذه العوامل السيئة.

* * *

التوسع العثمانى

كان من الممكن أن يبقى حكم طومان باى على مصر مثل حكم بقية السلاطين قبله مع وجود كل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالبلاد فى أخريات دولة المماليك لولا أن ظهور العثمانيين كقوة إسلامية فتية منافسة لدولته أصبح السبب المباشر فى القضاء عليها ضياع طومان باى نفسه.

والواقع أن أصل العثمانيين من الترك وكانوا يعيشون فى سهوب آسيا الكبرى إلا أن العثمانيين قد ميزوا أنفسهم عن بقية الترك باعتبار أن هذه اللفظة تعنى لهم بالأولى البدو من الترك.

وعلى أية حال فإن العرب عرفوا الترك وقت ضعفهم على عكس ما كانوا عليه فى الزمن القديم حيث امتدت دولتهم من تركستان فى وسط آسيا التى سميت بهم إلى سور الصين ومع ذلك فإن لفظة الأتراك كانت تعنى بالنسبة لهم الأقوياء فحاربوهم بقسوة منذ الأمويين واستولوا على بعض بلادهم فى وسط آسيا ونواحيها ولكن الترك أقبلوا على الإسلام الذى شاع بينهم فى زمن العباسيين وسعوا إلى ترك بلادهم ليهاجروا إلى بلاد الإسلام وليعملوا فى قصور حكام المسلمين حتى أصبحوا عماد جيش الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم العباسى.

وقد انتقل العثمانيون، وهم نوع من الترك، مع السلاجق إلى آسيا الصغرى واشتهروا بالعثمانية أوالعثمانيين نسبة إلى عثمان بن آرطغرل وإن عرفوا أيضًا فى أول إقامتهم فى آسيا الصغرى باسم ترك بإيمان وذلك بسبب صدق إسلامهم. ويبدو أن سلاجقة الروم هم الذين سمحوا لعثمان هذا فى تكوين إمارة قرة حصار فى جنوب بحر مرمرة بسبب مساعدته لهم ضد الروم، وقد أخذ يوطد أقدامه على

حساب جيرانه من الترك السلاجقة الذين تجزأت دولتهم إلى إمارات صغيرة بسبب منافسات أمرائهم، فكانوا يضمونها واحدة بعد أخرى إلى ملكهم كما أن عثمان بالذات سك عملة باسمه.

وفى عهد أورخان عثمان استولى العثمانيون أيضًا على بلاد مهمة من الروم وساعد على ذلك أن العثمانيين قد اخترعوا تنظيمًا اعتمدوا عليه فى الجهاد ضد الروم عرف بالإنكشارية وتعنى الجند الجدد.

وأكثر من ذلك أن الترك العثمانيين استولوا أيضًا على بلاد عديدة فى أوروبا على يد مراد الأول، ومن بعد بايزيد الأول وعبروا الدانوب ودقوا أبواب فيينا.

ولما انتبهت أوروبا إلى خطر العثمانيين عليها أتى الألمان والإنجليز والفرنسيون ليقوموا بحرب صليبية ضدهم فهزمهم بايزيد الأول هزيمة منكرة فى موقعة نيقوبوليس أى مدينة النصر على ضفاف نهر الدانوب وأسر عددًا كبيرًا من أشراف فرنسا،وكان لقبه «يلدرم» أى البرق أو الصاعقة ولكن مع وصول جنس المغول توقف نمو العثمانيين وقتًا، وكان قائد المغول تيمورلنك الذى حارب بايزيد الأول وهزمه فى معركة جو بوق أووه قرب أنقره سنة ١٤٠٢م وأسر بايزيد الأول الذى ما لبث أن انتحر فى السجن وقد ترتب على هذه الهزيمة تمزق دولة العثمانيين وتنازع أولاد بايزيد الأول وتحاربوا فيما بينهم وانفصلت كثير من البلاد عن دولتهم.

ولكن مع موت تيمورلنك استطاع محمد الأول وهو أول من استطاع أن يعيد الدولة العثمانية موحدة وقوية كما أنه على يد مراد الثانى ومن بعده محمد الثانى أصبحت دولتهم من أعظم دول الأرض ولا سيما فى عهد هذا الأخير الذى انتصر على دولة الروم فى آسيا الصغرى وحاصر عاصمة الروم القسطنطينية من البر والبحر وتمكن من الاستيلاء عليها.

اشتهر محمد الثانى نفسه بالفاتح وأصبح لفتح القسطنطينية أهمية خاصة فى تاريخ المسلمين إذ ترتب عليه قطع دابر دولة الروم.

ومن ناحية أخرى كان لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية أثره الكبير فى أوروبا إذ بعدها انطلق العثمانيون أيضًا بالفتح فيها وكأنهم أصبحوا يقومون بحركة اسلامية مضادة للحركة الصليبية ، بغزو الأوروبيين فى عقر دارهم وإن كانوا قد قاموا بذلك منذ قيام دولتهم.

المماليك لم ينظروا إلى العثمانيين فى أول الأمر بمنظار العداوة، أو المنافسين لهم فى السيطرة والنفوذ فى العالم الإسلامى، على أساس أنهم لم يعادوهم بعد؛ ولأنهم فى نظرهم لا يرقون إلى مرتبتهم: وحتى وإن كانوا قد أحرزوا انتصارات هائلة فى آسيا الصغرى وأوروبا ؛ إلا أنهم لا يقيمون مثلهم فى قلب العالم الإسلامى العربى، وإنما فى آسيا الصغرى وأوروبا فاتخذوا القسطنطينية، عاصمة الروم السابقة عاصمة لهم ـ وإن سموها اسطنبول ـ بكل ما كانت تمثله من عداء شديد للإسلام طوال قرون عديدة.

وعلى العكس؛ فإن المماليك بسبب وجود دولتهم فى الشرق : اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام والعروبة معًا: وعلى الخصوص: بسبب اتخاذهم مصر قلب العروبة والإسلام، ومركز الثقل فيهما؛ قاعدة أصيلة لدولتهم الإسلامية العربية المترامية، لا سيما وأن سياستهم هى نفسها سياسة الفاطميين والأيوبيين من قبل، باتخاذ مصر قاعدة للنضال فى سبيل العروبة والإسلام. ثم إن المماليك كان رصيدهم السابق بالنسبة للإسلام والعروبة كبيراً جدًا؛ فهم الذين قطعوا دابر الصليبيين من الشرق، وأنهم الذين أوقفوا الخطر المغولى. الذى لم يكن يقل تهديدًا للبلاد العربية والإسلامية عن الخطر الصليبى، كما استطاعوا أن يعيدوا الخلافة التى قضى عليها المغول فى بغداد، وبذلك أعادوا للإسلام ركنًا مهمًا فى شرعية وجوده؛ بحيث أصبحت القاهرة مركز خلافة العباسيين.

وبعد أن قاموا بـهذه المهام الكبرى: لصالح الإسلام العـام؛ فإنهم لم يستكينوا فى الجهاد ضد القوى الصليبية؛ فهـا هو برسباى يذكى روح الجهاد ويهاجم قُبرُص فى ثلاث حملات حتى أخضعها له، وانتصر على ملكها ، وفى أخريات أيام دولة المماليك، كـانوا يقومون بالجهـاد ضد البرتغـاليين، الذين طمعوا فى بلاد أفريقـيا ونواحى الخليج العـربى: بحـيث أصبـحت أساطيلـهم تجوب هذه النواحى حـتى الهند.

وفى أول الأمر ؛ فإن المماليك مثل بقـية المسلمين كان يثلج قلوبهم انتصارات العـثمانـيين على الروم ، وقضـاؤهم نهائيًـا عليهم، وفـتحـهم فى بلاد الروم فى أوروبا، بل يرون أنهم أفضـل من سلاجقـة الروم، الذين عاصروا نشـأة دولتهم؛ ولأن هؤلاء جاهدوا الروم والصليبـيين؛ إلا أنه بسبب ضعفهم بعد ذلك ؛ نـتيجة لانقسـامهم ؛ فإنهم أصـبحوا ضـعافًا مـتداعين: فكان مظهر التـقدير للعثـمانيين المجاهدين ؛ هو أن الخليفة الذى يستظل بحماية المماليك فى مصر، كان يرسل إلى سلاطين آل عثمان تقليد السلطنة على الخصوص ، من دون هؤلاء السلاجقة.

ومن ناحية العثمانين، كـانوا أيضًا فى وئام مع المماليك فى أول الأمر، يظهر ذلك من الرسائل التى تبادلوها مع سـلاطين المماليك؛ فيها تفخيـم لهم باعتبارهم قادة العرب، وحماة الحرمين الـشريفين، أو أن السلطان المملوكى هو خادم المساجد الثلاثة ، أى المسـجد الأقصى مضـافًا للحرمين الشـريفين، وأحيانًا تبادل عـبارات الحب والوله. وإن كان ذلك من قبل سـلاطين مصر أيضًا، لا سيـما حين كان أى جانب منهما ينتصر على قوى المسيحية. فيتردد فى رسائلهم : أن المملكتين روحان فى جسد، وساعدان فى عضد أو أنهما مملكة واحدة. فهذا التعبير قد أصبح يتردد غالبًا فى مـراسلات الدول الإسلاميـة الصديقة فى ذلك الوقت . ففى عـهد مراد العثمانى، أرسلت منه تهنئة إلى برسباى المملوكى، يهنئه بالفتح القبرصى.

وكثيراً ما كان سلاطين العثمانيين يستشيرون سلاطين مصر فى حملاتهم الأوروبية، وينزلونهم منزلة الآباء لهم؛ وإن انتصروا فى معارك ضد الروم أو الفرنجة أرسلوا إليهم بعض الأسرى منهم، كما أن بعضهم قد يطلب أطباء مصريين لمعالجتهم، أو حتى بعض منتجات مصرية، مما يتبين منه العلاقة الودية مع مماليك مصر.

ولكن العثمانيين بسبب انتصارهم فى آسيا وأوروبا : فإنهم أصبحوا يرون أنهم يستحقون مركزاً خاصًا بين مسلمى الشرق؛ حتى ولو كانوا بعيدين عنه، بحيث أصبح ذلك هدفًا فى سياستهم: منذ أخذهم القسطنطينية : فإنهم طمحوا إلى السيطرة على بلاد المشرق الإسلامى أيضًا: بحيث أن محمداً الثانى - أو الفاتح - الذى استولى على القسطنطينية، كان قد أعد جيشًا لغزو بلاد المسلمين، ولكنه توفى قبل أن ينفذ غرضه؛ومن الغريب أن النزاع الأسرى للعثمانيين، كان هو السبب المباشر فى تفجير العداء مع المماليك ، سيما وأن محمداً الفاتح هذا وبعد وفاة محمد الثانى حدث نزاع على السلطنة بين بايزيد خان الثانى، وأخيه الأصغر «جم» الذى أراد أن تقسم المملكة بينهما، فلما هزم لجأ إلى مصر ومعه أمه وزوجته وقد أخطأ قايتباى فى تشجيع العنصر الضعيف وهو جم ضد بايزيد الذى نجح فى تولى السلطنة ، لم يكن قايتباى فى وئام تام مع أمرائه المماليك؛ مما جعله يقيم السلام مع العثمانيين بأى ثمن؛ فأعاد محاولاته لوقف العداء بينه وبين العثمانيين؛ حقنًا لدماء المسلمين. وقد استعان فى سبيل ذلك بوساطة باى تونس، المسمى عثمان، الذى أرسل زين الدين، أحد فقهائه المشهورين للوساطة بين بايزيد وقايتباى؛ ومع لباقة الفقيه التونسى؛ فإن الوساطة لم تنجح؛ مما جعل قايتباى يتنازل للعثمانيين عن أدنة وطرسوس؛ فكان هذا هو أول وهن للمماليك أمام العثمانيين؛ كما أن قايتباى فى نفس الوقت؛ بدأ فى تحصين البلاد؛ حيث أنشأ قلعته المعروفة باسمه فى الإسكندرية، خوفًا من غزو مفاجئ.

فلما تولى الغورى بعد قايتباى، سعى إلى أن يصلح الأمور مع بايزيد الثانى، فأعلن له فى رسالة لدينا نصـها: أن سلفه قايتباى «انعـوج عن المصادقة»؛ إلا أنه على عكسه يسعى إليها، ويعترف بمواقف بايزيد الثانى فى الجهاد ضد الأوروبيين، ويصـفه بالسلطان الغـازى. وتبدو حـيطة الغورى، فى أنه قـد رفض أن يجئ ابن بايزيد الثـانى، واسمـه قورقـود إلى مـصر فى طريقـه للحج، إلا إذا أذن له أبوه بذلك؛ فأرسل قورقود الذى كان قد وصل إلى مـصر برسالة أو التماس إلى أبيه، يستأذنه فى ذلك ، مع أحد علماء الأزهر الشريف . بحيث أن بايزيد الثانى أرسل للغورى يشكره على ذلك،يلقـبه فيها بالأخ. مما يدل على أن العـلاقات الودية قد عادت بين المماليك والعثمانيين بعد التوتر السابق.

وبعـد موت بايزيد الثـانى، تجدد النزاع بين العـثمـانيين والمماليك؛ وحـدثت حوادث مـتشابهـة؛ بالتجاء أحـد أمراء آل عثـمان إلى مصر؛ بـسبب النزاع على الحكم. فقـد كان بايزيد الثـانى هذا، قبل مـوته، قد فرّق مملـكته بين أولاده؛ مما أغضب ابنه سليـمًا، الذى تميز من بين أخوته بشدة البـأس، ولم يكن فى قلبه أى رحمة، بشكل غـير عادى، ولم يكن يهمه غـير شخصه فتـآمر سليم ضد والده، معـتمدًا عـلى الإنكشارية على الخصـوص، وأجبـره على التنازل له عن السلطنة، ودخل القسطنطينية؛ مما جعل والده يتركها إلى الكوفة بالعراق، التى توفى فيها عام (٩١٨ هـ / ١٥١٢م) ، ثم حارب أخاه الأكبر أحـمد، الذى لحق بأبيه خوفًا منه، ولم يسمع بأحمد هذا بعـد ذلك، كما يبدو أن سليمًا قد قـتل بيده معظم أخوته، بما فيهم قورقود، وربما كان قد قتل أباه أيضًا، حتى عُرف باسم : «ياووز Yavuz»، أى الصارم ، أو الجبار البطاش.

ومع ذلك: فقد تمكن أبناء أحمد من الـهروب إلى مصر، وهم على التوالى: سليـمان وعـلاء الدين وقاسم: وإن كـان الغورى قـد اسـتقـبلهم فى مصـر على مـضض، وقد مـات الأولان بالطاعون. فـأرسل سليم يطلب من الغـورى تسليم قاسم، وكـان صغيـر السن، لا يتعدى ثلاث عـشرة سنة، فرفض الغـورى طلبه؛

بسبب أن الغورى كان يرى أن سليمًا الذى اجترأ على كل هذه الجرائم ، لا يتورع عن قتاله، سيما وأن الأمور كانت قد تأزمت بين الدولتين: بسبب مدن الحدود. فلما وجد سليم أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته، عزم على حرب المماليك حربًا شاملة.

وعلى كل حال أدرك الغورى أن قصد سليم من تحركه إلى الشرق لم يكن محاربة الصفويين بقدر محاربته هو ، بدليل أن سليمًا لم يسر فى هزيمة الصفوى للنهاية، وربما أيضًا بسبب أن بلاد الصفوى واسعة وجبلية، أو حتى خوفه من أن يهاجمه المماليك فى مصر. وكان سليم فى وقت محاربته للصفوى يتحرش بالغورى؛ بحجة أنه يأخذ جانب الشيعة ضده؛ واعتبر ذلك تحديًا له. وفى الوقت الذى أرسل فيه إلى الغورى رسالة يصفه فيها بالوالد. وذلك على حسب التقليد الذى جرى عليه سلاطين العثمانيين فى مكاتباتهم لسلاطين مصر، ويطلب فيه سكرًا وحلوى؛ حيث أسرع الغورى بإرسال مائة قنطار منها فى علب كبار؛ فإنه أخذ يهاجم الإمارات التركمانية الخلفية للغورى فى الأناضول ، التى كانت تقع بين العثمانيين والصفويين والمماليك؛ حيث تعتبر لهؤلاء منافذ للتجارة القادمة من الشرق، ونصح سليم الغورى ومماليكه أن لا يلتفتوا لتضرعاتهم، ولا يتقيدوا بسفسطتهم. وبعد انتصار سليم على الصفويين قضى على إمارة ذو القادر ـ القدرية ـ حليفة الغورى ، كما استولى جنده على بعض مدن الحدود المصرية، مثل مرعش التى كان نائب الغورى عليها، وهو علاء الدين، بحيث أصبحت حدود سليم ملاصقة لحدود مصر.

ويبدو أن إرادة قتال العثمانيين المماليك أصبحت أمرًا مسلمًا لديهم به؛ بسبب أن المماليك كانوا يسيطرون على الحرمين، وأن العقلية الإسلامية وقتئذ لا تقبل أن يكون صاحب سيادة وشرعية على المسلمين؛ إلا من كان يسيطر على الحرمين . ولما كان العثمانيون يريدون أن تكون لهم زعامة المسلمين من دون المماليك؛ فإنه لن تتهيأ لهم هذه الزعامة إلا بالاستيلاء على أملاك المماليك فى الحرمين. ومن قبل ؛

فإن سليمًا قد أرسل إلى شريف مكة - بركات - هدايا منها مفتاح للكعبة؛ وذلك دون استئذان من الغورى، الذى غضب على أمير مكة.

ومع ذلك ؛ فلم يستعد الغورى الاستعداد الكافى لمواجهة أطماع سليم؛ ربما لأنه كان لا ينتظر أن ينهزم الصفوى سريعًا هكذا، ويستبعد أن يجرؤ سليم على القيام بحرب شاملة معه، ولعله كان يأمل دائمًا المصالحة، وحتى الوساطة بين سليم والصفوى؛ بدليل أنه لما قرر السير إلى الشام، اصطحب معه أهل العلم جميعًا فى مصر، وعلى رأسهم الخليفة وقضاة القضاة والمتصوفة، ولم يستمع الغورى لنصيحة نائبه فى الشام، واسمه سيباى ، الذى كان يتمتع باحترام وتقدير أهل الشام؛ بأن لا يأتى لمحاربة سليم بنفسه، وإنما يمده بالعسكر، واستحلفه بألا يحارب فى هذا العام، لوجود قحط فى البلاد. وعلى العكس؛ فإن الغورى ، كان يتخوف من سيباى هذا، ويظن أنه يسعى إلى أن يحل محله، ومما يؤكد أن الغورى قد أخذ حرب سليم بخفة، من أن خروجه إلى الشام سمى تجريدة. وليس حملة، وأنه خرج فى موكب؛ تتقدمه الأفيال مزينة بأنواع الزينة. والمباخر تفوح منها رائحة البخور، وحتى صحبته المغانى، كما أخذ معه آلات السلاح الفاخر المستعملة فى المواكب الرسمية، من ذخائر الملوك السابقين، مثل : السيوف والسروج المذهبة والمزينة بالجواهر، حُملت على خمسين جملاً، وكان هو نفسه يحب البذخ، ويضع فى أصابعه الخواتم والياقوت والفيروز والزمرد، ومترفًا فى ملابسه، ولا يشرب إلا فى طاسات من ذهب. وفى أثناء سفره إلى الشام، كان يحتفل بوصوله إلى كل بلد؛ حيث كان أهله يظهرون الحماس نحوه، وذكرت فى هذه المناسبة أشعار، تتضمن أن البلاد الشامية قد شرفت بتشريفه؛ فزينت له دمشق سبعة أيام زينة حافلة ، وأقيمت فيها المواكب، ونثر على فرسه الذهب، وفرش تحت حافره، بساط الحرير، كما أقام - له أمير حماة ، احتفالات أعظم من احتفالات دمشق، ولقد أسرع الغورى فور وصوله إلى حلب بإرسال أحد أمرائه

إلى سليم، ومعـه نص للصلح، كما أن خطبـة إمام جامع حلب كـانت كلها عن الصلح، وحتى الأمـراء المماليك كانوا ينتظرون الجـواب بالصلح، ويحنون للعودة إلى الوطن. إلا أن سليمًا رفض الصلح، وقبض على رسول الغورى، ووضعه فى الحـديد، وحلق لحـيتـه، وربما أرسل إليـه الغـورى رسلاً آخـرين؛ فـقطع سليم رؤوسهم؛ مما جعل الغورى يدفع بطـوالع جنده إلى مَرج دَابِق ، من مدن الحدود، قرب حلب؛وقال : إنها إرادة الله.وخوفًا من غدر أمـرائه ؛ فإنه جمعهم وجعلهم يحلفـون على المصحف الشـريف أن لا يخونوا ولا يغـدروا؛ فحلفـوا كلهم على ذلك، أما غير الأمراء من الجند، فإنهم مـروا تحت سيفين على هيئة قنطرة، عنوان القسم على الولاء.

وقد قسَّم الغورى عسكره بإزاء عسكر سليم ، فـوضع فى المقدمة سيباى نائب الشام، وميـمنة على رأسها جان بردى الغـزالى نائب حماه، وميسـرة على رأسها خاير بك أمير حلب،أما هو فقد أقام لنفسه فى الوسط سرادقًا كبيرًا، وقد أحاط به الخليفة وقضاة القضاة وأعلام رجال الصوفية، وقاسم بك ابن أخ سليم .

وقـد دارت المعركـة فى يوم الأحد ١٥ من رجب سنة ٩٢٢ / ٢٤ أغـسطس ١٥١٦ ، فى يوم شديد الحرارة؛ وإن أحـاطت بها الخيانة منذ بدايتها. فـقد سرت إشـاعة مـغـرضة بأن الغـورى يريد أن يتـخلص من القـرانصـة، وهم من مماليك السلاطـين والأمراء السابقين، وأنـه طلب من الجلبان وهم مماليكه ألا يقـاتلوا؛ مما جعل القرانصة الذين كـانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتـال؛ مما ترتب عليه الهزيمة الكاملة، وفرار المماليك بجميع فئاتهم؛ وكان خاير بك أول من هرب من الأمراء، وتبعـه جان بردى، حيث كان كـلاهما يرى نفسه أنـه أحق بالسلطنة من الغورى، وقد حاول الغورى أن يوقف فرار المـماليك حيث أصبح فى نفر قليل، وكان ينادى بصوته : هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة ؛ إلا أن المماليـك استمروا يفرون، حينئذ طوى حامل راية السلطان ـ الصنجق السلطانى ـ رايته؛ وحدث شلل مفاجئ

للسلطان، وخرجت روحه ، بعد أن انقلب عن فرسه؛ ،وإن يبدو أن رأسه قد قطعت، حتى لا يتعرف عليه العثمانيون ، فلم تظهر له جثة بين القتلى، وكأن الأرض ابتلعتها فى الحال؛ حيث كانت جثث كثيرة مرمية بلا رءوس؛ فقد قتل كثير من أمراء الشام ومصر، فوق الأربعين ، منهم سيباى نائب الشام.

حينئذ استولى سليم على خيام السلطان ، واحتوى على ما فيها من أسلحة، ومال وتحف، ولا شك أن انتصار العثمانيين على المماليك، ومن قبل على الصفويين، أو حتى على الروم والفرنجة. راجع إلى تفوقهم الحربى؛ بسبب تطوير استعمالهم لسلاح البارود وآلاته على الخصوص؛ وذلك فى الوقت الذى أهملته الدول الأخرى ، بما فيهم المماليك؛ مع أن هؤلاء اعتبروا أول من استعمله.

ولعل العثمانيين بالذات، من دون غيرهم؛ قد اهتموا بالبارود اهتمامًا كبيراً؛ بحيث جعلوه أساس تسليح جيشهم من المشاة والفرسان، وسموه «باروت» ؛ فكان استخدام العثمانيين له بنجاح يعتبر مرحلة مهمة فى سبيل تطوير «الطاقة» ، واستخدامها لأغراض الحرب، وهو التطوير الذى لا يزال مستمراً حتى وقتنا الحاضر.

فهم أول من جعلوا المدفع سلاحًا هجوميًا، وأوجدوا له (فرقة) رهيبة فى جيشهم؛ عرفت بطوب جيلار ـ مفردها طوب جى ـ فكانوا بذلك على عكس المماليك، الذين لم يستخدموه فى الغالب إلا كسلاح دفاعى فى القلاع. وقد ترتب على ذلك، أن أصبح المدفع فى أيديهم سهل الحركة، يتحرك على عجلات من خشب، تسحبها الخيل والأكاديش والجمال والأبقار والجاموس، بعضها قد تصحبه ثلاثون أو أربعون من الخيل.

فكان تطوير استعمال البارود وأسلحته على أيدى العثمانيين عاملاً حاسمًا فى انتصاراتهم فى جميع حروبهم التى خاضوها ، أول ما ظهر أثره فى حصارهم للقسطنطينية، فى عهد السلطان محمد الفاتح فى عام (٨٠٧ هـ / م) والذى حاصرها براً وبحراً.

حقًا إن الغورى؛ قد استخدم المدافع ضد البرتغال ، لما قامت المنافسة بين المماليك وبينهم على تجارة التوابل، كما أنه وضع ما صنع منها فى القلاع لا سيما فى الإسكندرية، التى أرسل إليها مائتى مكحلة؛ حين بلغه أن سليمًا جهز عدة مراكب للإغارة على السواحل المصرية. ومع ذلك؛ فإنه لما قرر السير إلى الشام، لم ينفق على رماة البندق، فقد قال : ما عندى نفقة لهؤلاء. وربما لم يشتركوا معه فى المعركة الحاسمة ضد العثمانيين. وعلى العكس من ذلك؛ فإن جيش سليم، حينما زحف على الشام، كانت جميع عساكره تستخدم البارود وأسلحته ؛ فكان لديه ثمانمائة مدفع، منها مائة وخمسون مدفعًا كبيرًا فلما تقابل مع الغورى فى مرج دابق ـ قرب حلب ـ هزم جيش الغورى هزيمة منكرة، وقتل معظم أمرائه ومماليكه.

* * *

طومان باى وسليم

دخل سليم فى صراع مباشر مع طومان باى ، الذى كان قد أعلنت سلطنته فى مصر، بعد مقتل قانصوه الغورى، فى فترة حرجة، تعتبر من أحرج فترات مصر، ومع ذلك؛ فلا نعرف لأول وهلة حقيقة مقصد سليم، بعد انتصاره على الغورى فى مرج دابق، وهل كان ينوى إن يستمر فى فتح الشام ومصر، أو يكتفى بهذا الانتصار، ويعود بعد ذلك إلى بلاده، إن سليمًا لم يكن يريد أن يستمر فى حرب المماليك ، وينوى العودة إلى بلاده، مثلما فعل تيمور لنك المغولى من قبل، الذى لم يستمر فى الحرب مع المماليك، كما أنه كان من رأى سنان باشا، وزير سليم، أن يكتفى العثمانيون بأخذ الشام، وترك مصر لشأنها، ولكن إذا كان سليم قد استمر فى حرب المماليك، فذلك راجع إلى تحريض خاير بك بالذات، الذى كان نائبًا للغورى فى حلب، وكانت خيانته من أسباب هزيمته، ويفسر تردد سليم إلى خوفه من أن يضيع فى أرض العرب الكبيرة.

ولكن مثل هذه الأقوال التى رددها بعض المؤرخين؛ لا تنفى حقيقة طموح سليم نفسه فى أخذ بلاد الشام ومصر؛ يظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى أرسلها إلى طومان باى بعد موقعة مرج دابق ، مكتوبة بالتركية، فحواها أن الله قد أوحى إليه بأن يملكه البلاد شرقًا وغربًا، كما ملكها الإسكندر ذى القرنين من قبل، ويعتبر نفسه بسبب انتصاره على الغورى سلطانًا فى أملاكه، ويدعوه أن يكون نائبًا له من غزة إلى مصر، وأن تكون له فيها الخطبة وسك العملة.

وعلى كل حال، كانت الخطوة التالية لسليم، بعد مرج دابق ،استيلاؤه على حلب، أكبرمدن الشام ؛ فيذكر المؤرخون أنه دخلها بدون ممانعة ، وأنها زينت له

وأوقدت الشموع ليلاً ؛ وذلك راجع إلى أن خاير بك ، لما انسحب من مرج دابق، عاد إلى حلب ، وما لبث أن أظهر حقيقة غدره ؛ فخلع زى المماليك ، والتزم بزى العثمانيين ، وأصبح يكتب للأمراء والمماليك ، ويرغبهم فى الدخول تحت طاعة سليم ، ويعدهم بأن يبقى كل أمير فى وظيفته ، ويحفظ له رزقه ؛ بحيث سماه سليم سخرية «خاين بك» بدلاً من خاير بك ؛ وبذلك أشبه الوزير ابن العلقمى ، الذى خان خليفته المستعصم آخر خلفاء العباسيين فى العراق ، وملك هولاكو ـ هولاجو ـ بغداد . كذلك قد يكون سهّل لسليم أخذ حلب ، لأن أهلها كانوا غاضبين من الغورى ومماليكه ، بسبب أنهم قبل انتقالهم إلى مرج دابق، أساءوا معاملة أهلها ؛ وحينما دخل سليم حلب، أظهر منتهى القسوة؛ فقتل كل من التجأ إليها من المماليك ، وحتى رجال الدين، سيما رجال الصوفية منهم، الذين كانوا مع الغورى، وعلى رأسهم أقطابهم، الذين هربوا إليها براياتهم، فأمر سليم بقتل كل من وقع بين يديه، واحداً بعد آخر ، ولم يرحم كبيراً لكبره، ولا صغيراً لصغره؛ إذ عرف بحبه لسفك الدماء، فمن قبل قتل أباه وأخوته لأجل العرش . ويبدو أن أغلب من قتلهم كانوا من أهل مصر، ومع ذلك فقدَ أبقوه على الخليفة وقضاة القضاة المصريين ، ليستفيد منهم فى غزوته المقبلة لمصر، وإن أهانهم ووبخهم ، ولم يرع حرمتهم الدينية .

وحدثت معركة حقيقية فى غزة؛ بحيث اعتبر أنه لم تحدث معركة فى الشام، بعد مرج دابق ، إلا فيها؛ لا سيما وأن نائب الغورى فيها ، كان قد طلب من طومان باى أن يدركه بالعسكر . وبالفعل شرع طومان باى فى إعداد الجند، وجمع منهم عشرة آلاف . فأرسل إليها بعض المماليك الذين كانوا فى الطباق وهى المدارس الحربية المملوكية ـ ولم يكونوا قد اشتركوا فى القتال بعد، كما أرسل إليها بعض الذين هربوا من الأمراء ومماليكهم من مدن الشام الأخرى؛ وإن كانت سمة هؤلاء التباطؤ والتراخى والتقاعس الزائد ؛ بسبب أن طومان باى لم يجد المال

الكافى لينفق عليهم، وأظهـر بعضهم الجبن، وأراد أن يهرب من القـاهرة؛ بحيث اضطر طومان باى، أن يظهـر أنه يذهب بنفسه إلى قتـال سليم؛ وليستحـثهم طلب منهم القـتال عن أعـراضهم وأمـوالهم. كذلك أرسل بعض رمـاة البنادق من أهل مصـر وسودائهـا ـ العبيـد ـ فى ثلاثين عجلة تجـرها الأبقار، أمـا رماة المكاحل - المدافع ـ فقد أرسلهم على الجمـال. ولما أراد طومان باى أن يرسل بعض اللصوص والقـتلة ، الذين كانوا فـى السجـون؛ فإن ذلك لم يـعجب الناس فى القـاهرة . فتوجه هذا الجمع غير المتحمس للـقتال ؛ بقيادة الأمير جان بردى الغزالى؛ ووصل إلى مصر، بعد هزيمة مرج دابق .

أما العثمانيون فقد هجمـوا على غزة فى أعداد كبيرة، مثل الجراد، لا يحصى عددهم، بقيادة الوزير سنان باشا؛ إذ كان سليم قد ذهب لزيارة بيت المقدس. وقد سلحوا بالمدافع الكثيرة والبنادق، التى حملت على عجلات خشب، تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر.

وقد انتقم العثمانيون من أهل غـزة بسبب أنهم ساعدوا المصريين، فقتلوا منهم ألف إنسان من الرجال والنساء والأطفال؛ أما المماليك الذين نجوا من هذه المعركة ـ وهم قلة ـ فإنهم عـادوا إلى مصـر ، وهم فى أسوأ حال ؛ بعـضهم جاءها راكـبًا الحمـير ، وقد فـقد سلاحه ومع ذلك؛ فـقد كان سـريان الإشاعات الكثـيرة فى القاهرة السبب الأول فى اضطراب الأحـوال فيها، لا سيمـا أنه بعد هذه الحوادث الجسام؛ وجد بعـض العثمانيين فجأة فى وسط القـاهرة ؛ مما يدل على أن بعضهم فى القاهرة قد سهل دخـولهم إليها؛ وإن ادعى هؤلاء أنهم رسل سليم إلى طومان باى، الذى أسرع بالقبض عليهم، وأصدر أوامره بأن لا يأوى أحد عنده غريباً وإلا تعرض للشنق؛ كما زاد من القيل والقال أن امرأة قد حاولت قتل طومان باى نفسه بخنجـر؛ وإن لم تعـرف التفـاصيل؛ فـلعلها كـانت هى الأخـرى من جواسـيس العثمانية .

وكادت القاهرة ذاتها تخرب، حينما خرج مماليك الطباق، وقد غضبوا لمقتل الغورى؛ فعمدوا إلى حرق الأسواق التجارية .

ولكن طومان باى أسرع فاحتجز مماليك الطباق، وطلب من الأغوات ـ وهم أساتذتهم ـ أن يراقبوهم ، ويقول ابن إياس عن ذلك؛ لولا همة طومان باى فى ذلك؛ لكانت القاهرة قد خربت عن آخرها .

وزاد من مشاكل القاهرة ، أنه بعد هزيمة غزة بالذات، هاجر إلى القاهرة أهالى الشرقية وبلبيس؛ خوفاً من النهب والقتل إذا ما تحرك العثمانيون نحو مصر؛ فكانت هجرتهم من الكوارث؛ إذ تبع ذلك أن قلت الأقوات، وارتفعت أسعارها، وقل الدقيق والخبز، وتعطلت الطواحين؛ مما جعل طومان باى يغير المحتسب، وهو الموظف المختص بالسوق والتسعير .

يضاف إلى ذلك، أن أحوال طومان باى نفسه فى مصر، كانت هى الأخرى غير مستقرة ؛ بسبب أن أمراء المماليك الذين قدموا من الشام بعد هزيمتهم، طمعوا فى أن يتولوا السلطنة من دونه، مثل الأمير سودون ومع ذلك، فإن طومان باى اضطر أن يسجن بعض الأمراء المماليك القادمين من الشام، سيما الذين سلموا قلاعهم بدون قتال، مثل قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب، الذى سلمها من غير حرب وهرب، على الرغم من أنها كانت تحتوى على ذخائر مصر ومالها، فوبخه ثم سجنه، ولكن تمكن بعضهم مع ذلك من أن يهرب إلى سليم، كما حاول جماعة منهم مثل قاسم بك، الصبى الصغير من أسرة سليم، الذى كان قد التجأ إلى مصر، وكانت هناك إشاعة أن غالب عسكر العثمانيين كانوا يميلون له؛ مما جعل طومان باى يسكنه معه فى القلعة .

وحتى المماليك الجلبان، أثاروا لطومان باى متاعب كثيرة. فبعد موت أستاذهم الغورى، لم يعد لديهم وازع لطاعة طومان باى، وسعى بعضهم إلى أن يولى محمد بن الغورى السلطنة ، بعد عودته من الشام. وقد أراد طومان باى أن يضع حداً للانقسام فى صفوفهم؛ بقتل محمد هذا، إلا أنه لم يستطع ذلك؛ خوفاً

منهم، ولعل الجلبان أنفسهم لم يتمسكوا بتوليته؛ بسبب صغر سنه، وأن أهل دمشق كانوا قد رفضوا سلطنته أيضاً .

حقاً وإن كانت تبعية طومان باى للسلطنة شرعية، بناء على التوكيل الذى أظهره يعقوب، أبو الخليفة المتوكل على الله، الذى أسره سليم فى مرج دابق؛ إلا أن يعقوب هذا لم يستطع أن يتخذ لقب الخلافة ، ولم يلبث المتوكل نفسه أن يدعو إلى شرعية حكم سليم، وبالفعل كان سليم قد أرسل إلى طومان باى، قبل دخوله مصر، أن الخليفة والقضاة قد بايعوه،فضلاً عن أنه ملك إلى عشرين جداً، بينما طومان باى مملوك يباع ويشترى، ولا تصح له ولاية .

وأخيراً ، فإن طومان باى لم يكن يجد المال اللازم للصرف على العسكر والسلاح. فقد كان الغورى أخذ معه كل مال مصر، الذى بلغ مائة مليون - ألف ألف - غير التحف، وتركه فى قلعة حلب، تحت إشراف ابنه ، وحتى أمراء المماليك، الذين ساروا معه، كانوا قد أخذوا معهم معظم أموالهم، وتركوها أيضاً فى حلب؛ بحيث أن ما حصل عليه سليم لما دخل حلب لا يحصر .

لذلك لم يجد طومان باى لا درهماً ولا ديناراً فى الخزائن؛ وحتى المال الذى كان بقى فيها، قبل خروج الغورى إلى الشام؛ ربما سرق؛ وأنه بعد انكسار المماليك فى غزة امتنع الفلاحون كذلك عن دفع الضرائب كلية، يبدو أن طومان باى قد أصبح يقدر أهمية البارود وأسلحته ، لا سيما أنه قد سمع بمدفعية النفوط المرعبة، كما يسميها ابن إياس - التى كانت السبب فى نصر العثمانيين ، فى موقعتى مرج دابق وغزة. فيقول النص: إنه حتى وهو أمير غيبة، نائباً عن الغورى، كان قد أظهر همة فى صنع البارود وآلاته. فلما ولى السلطنة، بعد مقتل الغورى ، زاد عزمه - له عزم شديد - فى سبك المكاحل وعمل البنادق، وأمر طومان باى بصنع مكاحل، بعضها من النحاس، صرف عليها جملة من المال، حيث عرض بعضها أمامه، فكان عددها مائة محملة على عجل من خشب،

يسحب كلا منها زوج أبقار، كما عرض مائتى جمل باروداً ورصاصاً، محملة ألفاً وخمسمائـة طارقة ـ جمعها طوارق ـ لعلها أسلحة نارية أيضـاً. كذلك جمع مالا يحصى من الرماة بالأسلحة النارية ؛ حيث كان جلهم من المصريين والسودانيين ؛ الذين يرمون بـالمكاحل والبنادق؛ فكانوا دائمى التمـرين؛ حتى أن القـاهرة كانت ترتج لقذائفهم .

وكان من رأى طومان باى أن يهاجم سليمًا فى وسط الطريق؛ ولا يتركه حتى يأتى إلى القاهرة؛ على أسـاس أن صحراء شـرقى مصر وقسـوتها؛ من الممكن أن تنهك جيشـه ، سيما وأنه لم يأت عن طريق الساحل ، مثلمـا حدث فى غزوات سابقة. ولكن تحت إلحاح أمراء المماليك، فإنه اضطر أن يطرح استراتيجية المعركة، كما يريدها ، جانباً وأجبر على انتظار مجئ العثمانيين. ولذلك لم يجد هؤلاء أى مقاومة فى زحفهم على مصـر، إلا من بعض العربان، الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى النهب والسلب؛ ومع ذلك؛ فإن طومان باى قـد أمر بحرق بعض الشون التى تقع خارج القاهرة ؛ حتى لا تقع فى أيدى العثمانيين .

استـعد طومان باى لمقابلة العـثمانيين بجـوار القاهرة ـ فى المطرية ـ فى مكان اسمـه الريدانية، يقع خارج أسـوارها، من ناحيـة باب النصر، ويمتد حـتى جبل المقطم، عـبارة عن بعض البسـاتين والأسواق، إلا أنه فى أواخـر عهد المـماليك، خرب معظمه ، وأصبح أرضـاً جرداء، خالياً من السكان. فكانت المدافع تنقل من مسـابكها إلى هذا المكان، وهى مغطاة بالجـوخ؛ حيث وضعت الكبـار منها، التى كان يجرها ثلاثون أوأربعـون من الخيل، على الجبل الأحمـر، وهو جزء من جبل المقطم فى هذا المكان؛ بينما صغار المدافع، وكان يجرها أربعة من الخيل.

والمدفعية المصـرية، وضعت على قواعد ثابتة، وأصبحت غيـر قابلة للحركة، وزاد الطين بلة، أنها طمـرت فى الرمال عمداً زيادة فى إخـفائها، وهى مـعمرة ؛ حيث قيل إن الذى أمر بوضعها هكذا، هو الأمير جان بردى الغزالى الذى هزم فى

موقعة غزة، فيقول ابن زنبل عنه: إنه كان يوجد اتفاق باطنى بينه وبين خاير بك، الذى خان الغورى من قبل. ويبدو أن طومان باى قد تنبه إلى خيانة الغزالى، فى آخر لحظة؛ فأراد قتله، لولا أن الأمراء منعوه؛ لوصول العثمانية إلى الريدانية فى يوم الخميس ٢٩ من ذى الحجة سنة ٩٢٣ / ٢٢ يناير ١٥١٧. لذلك لما تدفقت العثمانية من تحت الجبل الأحمر بأعداد هائلة بلغت ٢٠٠ ألف أو أكثر؛ بقصد الالتفاف حول المدافع المصرية، بالتواجد من وراء فوهاتها، ولم توجد فرصة لهذه المدافع لمواجهة العثمانيين، فلم تنطلق إلا واحدة؛ مما أرعب العثمانيين، الذين ما لبثوا أن أدركوا عجز مدافع المصريين حينئذ. لم ينتظر طومان باى، وقصد ومعه شجعان فرسان المماليك إلى معسكر سليم، الذى أقيم فى أول الريدانية، فوقعت موقعة مهولة، أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق، إذ اقتحمه بشجاعة نادرة، حتى أن المؤرخ ابن زنبل يقول عنه وعن من معه من فرسان. فقتل عدد لا يحصى من أمراء العثمانية وعسكرها، ومعظم الموجودين فى خيمة سليم نفسها، بما فيهم سنان باشا الخادم، الصدر الأعظم؛ الذى بارزه طومان باى وقتله بيده، ربما ظناً منه أنه هو السلطان سليم نفسه، وإن كان سليم لم يكن موجوداً فيها وقتذاك.

وقد حزن سليم على وزيره الكبير حزناً كبيراً، واعتبر فقده خسارة كبرى، وفكر فى الانتقام وقال: استولينا على مصر، ولكننا فقدنا سنان باشا، خسارتنا فيه لا يمكن أن تعدلها دولة.

تمكن العثمانيون من قتل عشرة آلاف من المماليك؛ وبقى طومان باى فى قليل من المماليك والرماة العبيد؛ الذين دافعوا عنه ببنادقهم. فلما تكاثرت العسكر العثمانية عليه، انسحب إلى طرا، قرية فى نواحى الفسطاط المجاورة، من كثرة البندق.

وأول من أخبر سليماً بالنصر فى الريدانية كان خاير بك؛ الأمير المملوكى الخائن ، الذى صاحبه فى زحفه على مصر، وأصبح من أقرب أعوانه ، سيما بعد قتل وزيره سنان باشا الخادم. ويبدو أن خاير بك دخل القاهرة قبل سليم، ليستولى على القلعة، التى أخذها بدون مقاومة ؛ إذ لم يكن بها أحد. فلما لحقه سليم، لم ينزلها، وإن أخذ مفاتيحها، وفضل أن ينزل بناحية المقياس فى الروضة ، على شط النيل؛وبمجرد دخول طلائع العثمانيين القاهرة، شرعوا فى تعقب المماليك فى كل مكان، وحتى فى البيوت والمقابر، فمن كان يقع منهم، تضرب عنقه فوراً، وساعدهم فى ذلك العربان، مما جعل كثيراً من المماليك يتخفون فى زى الفلاحين، أو يلبسون ملابس حرافيش القاهرة، وهم صعاليكها أو فقراؤها. كذلك عمد العثمانيون إلى قتل المصريين بوحشية لا نظير لها، وفى الوقت نفسه، ساد النهب فى القاهرة؛ بحجة البحث عن المماليك بحيث صار الجند العثمانيون ينهبون ما يلوح لهم؛ فلم يتركوا خيلاً ولا بغالاً؛ ولا أقمشة، ولا قليلاً ولا كثيراً. ولم يمنع النهب؛ إلا بعد ثلاثة أيام متوالية، حينما أمر سليم الإنكشارية - وهم العسكر الخاص - بالخروج من القاهرة ؛ والوقوف على أبوابها. كذلك نادى الخليفة وقضاة القضاة؛ وكانوا قد عادوا إلى مصر مع السلطان سليم؛ بالأمن والاطمئنان؛ والبيع والشراء؛ كما أن سيدى محمد؛ ابن السلطان الغورى؛ قابل سليماً، وحلف له ؛ وأعطى ورقة الأمان .

وقد دخل سليم القاهرة فى يوم الأثنين ٣ من المحرم سنة ٩٢٣/ ١٤ أبريل ١٥١٧ ، فى موكب حافل، وقد فرشت له على الأرض شقق الحرير تحت حافر فرسه، وكان قدامه الخليفة والقضاة، وقد أحاطت به العسكر بين مشاة وفرسان ، حتى ضاقت بهم الشوارع، وقد حملت راياتها الحمراء شعار الدولة العثمانية،التى أوقدت الشموع على الدكاكين، المسماة الشموع الموكبيات - أى الكبيرة - وإطلاق مجامر العود؛ ومرشاة الماورد .

وكان قد خطب من على منابر القاهرة فـى يوم الجمعة ؛ باسم السلطان سليم شاه، بدلاً من الخـطبة لطومان بـاى. فلما وصفـه الخطيب بقوله: إنه مـالك مكة والمدينة؛ ساءه ذلك ، وأمره أن يخطب به خادماً لـهاتين المدينتين، لا مالكا لهما، ومنذئذ أطلق هذا اللقب على سـلاطين العثمانيـة. فكان يخطب له بالآتى: انصر اللهم السلطان ابن السلطان ؛ ملك البـرين والبحرين، وكاسر الجـيشين؛ وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظـفر، سليم شاه، اللهم انصره نصراً عزيزاً، وافتح له فتحًا مبينًا؛ يا مالك الدنيا والآخرة، يارب العالمين .

وقد أخـاف السلطان سليم بشكله أهل القـاهرة، إذ أن لدينا وصفـه؛ مما نقله المؤرخون المصريون المعاصرون له مثل ابن إياس، الذى وصــفه وصفًا دقيقًا، بأن له من العمـر نحو أربعين سنة أو دون ذلك؛ وأنه مربوع القامـة، واسع الصدر، ملئ الجسد، كبير الرأس ، درى اللون، له وجه كالـح؛ وجبهة ضيقة؛ واسع العينين، وأنفه كبير وافر ، وله لحية سوداء، حلقت حتى الذقن، شنبه بارز، وله عنق قصير «أقنص العنق»، ومكرفس الأكـتاف ، وعلى رأسه عمـامة صغـيرة وقد وجد فـيه المصريون خفة ظاهرة ؛ إذ كان فى أثناء ركوبه كثير التلفت .

* * *

نهاية طومان باى

لا يعنى دخول العثمانيين القاهرة أن طومان باى قد انتهى؛ فقد استمر يقاومهم بشدة وضراوة، على الرغم من أن سليمًا كان يملك سلاح البارود المتفوق، الذى كفل له النصر فى جميع معاركه السابقة فى الغرب والشرق؛ مما جعله لفترة يتردد فى أن يستمر فى حربه .

وعلى العكس؛ فإن طومان باى الذى كان يتحلى أصلاً بصفة الإقدام والشجاعة؛ إلا أنه اكتسب فى حربه مع سليم صفة الصبر فى النضال؛ على الرغم من أنه اعتمد على السيف وحده؛ دون سلاح البارود، الذى كان السبب فى هزيمته؛ وهزيمة الغورى من قبل، أو على الأقل لم يجعله سلاحه الأساسى ؛ ربما بسبب أن المماليك كانوا دائمًا يرفضون هذا السلاح غير الإسلامى الأصل؛ معتمدين أساساً على فروسيتهم .

وبالفعل قرر طومان باى الرجوع إلى القاهرة ، ولم تمض خمسة أيام على انتصار العثمانيين عليه. ففى ليلة الأربعاء، الخامس من المحرم ٢٨ يناير ١٥١٧ ، بعد صلاة العشاء ، تمكن من تسريب أتباعه فى حاراتها، حتى وصلوا إلى معسكر سليم. حينئذ أطلق فيه جمالاً محملة بمادة مشتعلة؛ مما جعل معسكر سليم يشتعل بالنار، وظن سليم أنه مأخوذ لا محالة. ومالبث العامة من أحياء القاهرة، لا سيما من حى بولاق أن انضموا إليه، فكانوا يرجمون المعسكر العثمانى بالمقاليع وفيها الحجارة ، كما أن بعض رماة البندق من المصريين قد اشتركوا فى القتال أيضاً؛ حيث كان المماليك يسمون هذه الجماعات من أهل مصر بالعبيد؛ حتى لا تكون

لهم صفة الجندية مثلهم . فلاشك أن هذه أول مرة يشترك فيها المصريون فى مقاومة العثمانيين؛ إذ أنهم بحسهم الوطنى قدروا أبعاد الكارثة، التى حلت بهم نتيجة لمجئ العثمانيين مصر. فلم يكن من الممكن إذن أن يقفوا سلبيين على طول الخط من هذا النضال بين المماليك والعثمانيين ؛ لا سيما وأن أهل القاهرة كان لهم دور إيجابى من قبل فى اختيار طومان باى. فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالى، إلى يوم السبت ، حيث ظهروا فيها على العثمانيين؛ حتى صاروا يكبسون أماكن تجمعهم أيضاً وبسبب انتصار طومان باى؛ فإنه خطب له فى القاهرة فى يوم الجمعة، مع أنه فى يوم الجمعة الماضية، كان قد دعى لسليم.

ويبدو أن حرب الحارات التى أكره عليها العثمانيون لم تعد تلائم العثمانيين، مما جعلهم يلجأون إلى تكتيكهم السابق بالحرب بالبارود وحده، الذى كانوا يعتمدون عليه فى كل حرب ناجحة، لتفوقهم فيه. فطلعت الإنكشارية من رماة البندق إلى المآذن ؛ وصاروا يرمون فى كل اتجاه بالبندق الرصاص، مما أجبر المماليك والأهالى على وقف المقاومة، لاسيما وأنهم قد تعبوا من القتال المستمر طيلة هذه الأيام دون راحة فانسحب الجميع من القتال ، بما فيهم المماليك بحيث لم يبق إلا طومان باى وحوله رماة البندق المصريين وبعض خاصة مماليكه ـ مماليك سلطانية ـ واضطر طومان باى هو الآخر إلى أن ينسحب إلى خارج القاهرة .

وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم ، وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف، حتى كاد يفنى أهل القاهرة نتيجه لذلك . كذلك قتل العثمانيون كل من وقع فى أيديهم من المماليك، الذين تخفوا فى بيوتهم أو فى أماكن أخرى، بلغ عددهم نحو ثمانمائة من الأمراء والمماليك العاديين، وقد اعتبرت هذه المحاولة الفاشلة من قبل طومان باى، الكسرة الرابعة للمماليك على أيدى العثمانيين، بعد مرج دابق وغزة والريدانية، مما يبين أهمية انتصار العثمانيين فيها. وبالفعل ، فإنه بعد أن استتبت الأمور للعثمانيين فى القاهرة، طلع سليم القلعة لأول مرة، فى موكب حافل، ارتجت له القاهرة، وذلك فى يوم الثلاثاء ١١ المحرم (٢ فبراير) .

وقد لجأ طومان باى إلى البهنسا ، وهى غربى النيل فى جنوب القاهرة، فأقام فيها متخذًا النيل كخط دفاعى له، بأمل أن يعاود الهجوم فى الوقت المناسب فانضمت إليه فلول المماليك، وبعض أهالى مصر فى الصعيد، بلغ عددهم أكثر من عشرين ألفا، والملاحظ أن بعض الأمراء المماليك الذين انضموا إليه، كانوا قلة إلا أنهم كانوا فى غاية الفروسية والإقدام يملكون مثله إرادة النضال. فكان على رأس هؤلاء الأمراء، الأمير شربك ـ يسميه ابن إياس شادبك ـ الذى كان مسجونًا فى أيام الغورى، وأطلق طومان باى سراحه وأشركه فى حروبه ضد العثمانيين وقد اشتهر الأمير شربك بالأعور، مع أنه لم يكن كذلك . أو حتى به حول بسبب أنه كان إذا مال بعينه إلى جانب ، كان بياضها أكثر من سوادها،وعينه طومان باى دوادارا له، أى كاتم سره ، وأصبح يقيمه مقام نفسه ، فى جميع أموره ، حتى أنه اشترط على نفسه إن انتصر أن يجعله ولى السلطنة من بعده، ولدينا وصف الأمير شربك هذا مما يدل على أنه بحكم تكوينه الجسمانى كان فارسا من الطراز الأول، فهو ليس طويلاً ولا قصيرًا، ولا سمينًا ولا رفيعًا ، أعرض ما فيه صدره وأكتافه وذراعاه، وكان له من القوة أن يمسك الفحل من قرنه فيجذبه، فيعلقه من مكانه، ويلوى قرونه بيديه ، فيقلبه على جنبه .

وفى أول الأمر، قرر سليم أن يطاول طومان باى، بمحاربته بالمماليك من جنسه ، لا سيما الأمراء منهم ، الذين خانوا دولتهم ، وانحازوا له، حتى من أيام الغورى؛ وذلك دون أن يحاربه بنفسه فيرسل ضده فى الصعيد جانم السيفى، من أتباع خاير بك، الذى كان فى الأصل كاشفًا للفيوم ـ أى من يجبى مالها ـ مع رماة البندق الكثيرين ، عددهم عشرون ألفا، وكان زحفهم فى المراكب ، فلما التقى بطومان باى، طلب مبارزته ، فخرج له ، وتمكن من جرحه، وبعدها أطبق طومان باى وأتباعه على من كانوا فى المراكب وسحقوهم، وغنموا ما لديهم من البندق وآلات الحرب ، ولم ينج جانم نفسه إلا بصعوبة .

كذلك أرسل سليم ضده جـان بردى الغزالى، أخا زوجة طومـان باى نفسه، وكان من قبل من أسباب هزيمة كل من الغورى ومن بعده طومان باى فى معاركهما مع العثمانيين، وإن لم يعرف هل كان ذلـك عن خيانة، كما يؤكد أغلب المؤرخين المعاصرين، بما فيهم ابن إياس، أو ربما لطمـوح فى نفسه، وكان الغزالى قد طلب الأمان من سليـم بعد الكسرة الأخـيرة فى القـاهرة ، فظهر ومعـه نحو أربعـمائة مملوك، دقت أعناقهم جـميعـهم، ربما ثمن الأمان لشخـصه. فأرسله سليم ومـعه وزيره يونس باشا وقوة من خمسمائة من رماة البندق، فكان الغزالى فى تحركه نحو طومان باى، يبالغ فى إرهاب الأهـالى لاسيما العرب منهم بحـرق بيوتهم، وسبى الحريم والأولاد، ويـبيعهم كمـا يباع الرقيق، مما أغضب يونس باشـا، الذى تركه وحده يعـيث فساداً . فلـما لحق الغزالى بطومـان باى، تمكن من قتل عـشرة من فرسانه، ودفـعه غروره أن يطلب مبـارزته، فخرج له طومان باى وقلبـه عن ظهر فـرسه، ووضع السـيف فى نحـره ، وأراد أن يقتله، لولا أنه اسـتـرحمـه بحكم القرابة، وحلف له أنه لا يحاربه أبداً، وفى الوقت نفـسه، لجأ سليم إلى الحيلة مع طومان باى، فأرسل إلـيه أماناً مع قضاة مـصر ، يصحبهم منـدوب عن الخليفة، يعينه فيـه على بلاده مدى الحياة، ويرضى منه أن تكون له الخطـبة والسكة وحمل الخراج إليـه، كما أرسل إلى صديقـه شربك الأعور أماناً مماثلاً، يعلن فـيه أنه لا حاجة له فى مـصر، وأنه يرحل عنها. وربما كان سليم مـضطراً إلى ذلك، إذ كان يقدر صلابة طومـان باى، أو لعل طومان باى، هو الذى اقتـرح مثل ذلك، حيث كان قـد قوى بكثرة من أتاه من العسكـر، وما توافر له من مدد ومـؤن وصلته من الإسكندرية بالذات، حتى أشـاع أنه زاحف إلى الجيزة . وعلى كل حـال، فإنه لما عقد طومـان باى مشورة ، فإن الأمراء المماليك ، وعلى رأسـهم شربك الأعور ، رفضوا بشدة الصلح، وهاجموا رسل سليم وقتلوهم ، بما فيهم القضاة .

ويبدو أن سليـماً وجـد أن لا سبيل له مع طومـان باى إلا أن يخوض بنفـسه

ضده معركة حاسمة جديدة ، وقبل أن يحاربه، قتل جميع الأمراء المماليك المحبوسين فى القلعة، وكانوا نحواً من الأربعين أو أكثر ، مع أنهم نالوا أمانه بعد معركة القاهرة الأخيرة .

وبعد ذلك ، وضع سليم مدفعيته على شواطئ النيل، لقذف قوات طومان باى فتمكنت قواته من أن تعبر النيل، لتقابل طومان باى، وقد حملت البنادق والأعلام، التى كان قد دخل بها القاهرة .

وقد رمى سليم فى المعركة برماة البندق والمدافع، بحيث زلزلت الصحارى من حولهما، وكانت نتيجة المعركة أن قتل معظم من كان مع طومان باى من الأمراء والجند، وبدلا من أن يساعده الأعراب من قبيلة عزالة كما وعدوه ، فإنهم جروا خلفه بعد هزيمته ، إلا أنه تمكن من أن يتغلب عليهم فى الجيزة ، مع القليل الذى بقى معه .

ويذكر ابن زنبل شيئًا عجيبًا عن طومان باى لم نصادفه لأى سلطان مملوكى آخر من سلاطين المماليك فى مصر، إلا أن له دلالة كبيرة، تبين بحق أن طومان كان يعتبر نفسه مصريًا عربيًا، يقاتل فى سبيل مصريته وعروبته، فيذكر أن طومان باى وهو عند أهرام الجيزة ـ قرض قصيدة طويلة من الشعر العربى، بلغت مائة بيت، كتبها له شربك بيتاً بيتاً ، وعلقها عند الأهرام، تتضمن النوائب التى حلت به وبدولته ، وأنه بحكم المسئولية يقبل قدره، وأنه فعل كل ذلك من أجل مكانة مصر التى شهدت مولد الزمان ومولد الحضارة. وعلى العكس ، فإن سليمًا بعد هذا النصر، تفرج على الأهرام وأعجب ببنائها .

بعد هذه المعركة الخاسرة الحاسمة. انسحب طومان باى إلى سَخَا ، حيث كان ينتشر فيها عرب قبيلة عزالة، وربما كان طومان باى منهوك القوى، لا يقوى على الجرى إلى أى مكان آخر، أبعد من ذلك ، أو لأن عرب عزالة قد أصبحوا فى طريقه، وإن كان سرعان ما تركها، بسبب أن عرب عزالة كانوا قد انضموا إلى

سليم فى قتاله، واتجـه إلى إقليم البحيرة ، أو لأنه كانت له علاقـة ودية سابقة مع عربها من قبيـلة محارب وهم غير قبيلة عزالة ـ أو ما كـانوا يسمون أولاد مرعى، حيث كان طومان باى هو الذى أطلق شيخـها حسن بن مرعى من حبس الغورى، لما تولى السلطنة .

وبالفعل ، فإن حســن بن مرعى وأخاه شكر، قد أحسنا استـقبال طومان باى ومن مـعه ، حـتى أن حسـن بن مرعى قـبل يدى طومـان باى، وحلف له بإيمان الطاعـة هو وعشيـرته. وقد أراد حـسن بن مرعى أن ينزل طومـان باى فى منزله مبالغة فى الـضيافة، إلا أن طومان باى فضل أن يلجأ ومـن معه إلى أحد الأودية المجاورة فى قـرية تروجة ، من إقليم البحـيرة من ناحيـة الإسكندرية، وهى نفس المكان الذى كان قد خرج مـنه وفد من المصريين، لاستقبال جـوهر الصقلى ـ قائد الفاطميين ـ لما قدم من شمال أفريقـيا. فهل يا ترى كان طومان باى ينوى أن يترك مصـر إلى شمال أفـريقيـا. وعلى كل حال ، سرعـان ما تشـاءم طومان باى، لما هاجمته الكلاب، وطار سيفه من يده، وهو يردها عن نفسه .

ولكن سليماً عن طريق جان بردى الغزالى ـ قريب طومان باى ـ اتصل بعربان أولاد مرعى، ووعـد حسن بن مرعى، إن سلمـه طومان باى ، فإنه يقـدمه على جميع مشايخ العربان فى مصر، ويجـعل أرضه التى فيها إقطاعا له، ولا يأخذ منه دراهم ، ويبدو أن حـسن بن مرعى ، قد اسـتجاب لطلـب سليم، إذ ما لبث أن جاءت الخـيل العثـمانية ، لأخـذ طومان باى. فـقاوم الأمراء القلـيلون من حول طومان باى على غـير جـدوى، وإن استطاع الأميـر شربك وحده الإفـلات. أما طومان باى، الذى كان يعـرف أنه مأخوذ، لم يبد أى مقاومة، حـينما أحاطت به العسكر العثمانية، وهى تقدرأنها قـد وقعت على فريسة عظيمة. ولذلك ، جعلوا طومان باى يضع يده اليمنى فوق اليسرى، وربطوهما من قدام وأوثقوهما، وقدموا له بغلة وأركبوه عليها ، وقيدوه من تحت بطنها .

وحينما وصلت سليم البشرى بالقبض على طومان باى، وأنه فى الطريق إليه، أبدى ارتياحه العظيم، وقال: الآن ملكنا ملك مصر، وأمر بالزينة فى القاهرة ومصر - الفسطاط - وجعل الطبول والكوسات - نوع من الطبول - تدق فى أرجائهما. فزين الناس مضطرين جميع البيوت والدكاكين، والناس لا تعلم سبب الزينة، وسرعان ما علمت بعد ذلك، وهى لا تكاد تصدق أن طومان باى قد أمسكوه .

ولما وصل طومان باى أمام سليم، استقبله وقد أحاط به خاير بك والغزالى وحسن بن مرعى والوزير يونس باشا: وقد وقفت العساكر العثمانية، على حسب مراتبها، وأسلحتها من البنادق فى أيديها فسلم طومان باى سلام الملوك، فرد عليه سليم كما يجب ، ولم ينتقص مكانه فى سلامه، وقد استمر طومان باى واقفاً ، إلى أن أمره سليم بالجلوس، فجلس . فنظر إليه سليم وتأمله ، فوجد فيه - كما يقول المؤرخ ابن زنبل - كل شىء يشهد بالشجاعة والفروسية وكمال العقل، فقال له معاتبًا بشدة: يا طومان باى، كم نهيناك عن القتال، وسفك دماء المسلمين، وإنى أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة باسمى، وأنت مقيم على مصر، فأبيت ذلك ، وقتلت رسلى، والرسول لا يقتل، بل قتلت قضاة بلادك، ولم تقبل الصلح. كذلك أشار إليه، أنه واجب الطاعة لأنه سلطان ابن سلطان . بينما طومان باى من المماليك، الذين لا يعرفون حتى آباءهم فيناقش طومان باى سليماً وهو فى الأسر، على أساس أنه سلطان مصر، ومعتزاً بالمثل العليا، فلا يتخاذل أو يطلب الرحمة، فيرد: بأنه لم يكن شىء مما جرى من قتل الرسل أو القضاة، قد مر بخاطره، ولا بأمره أبداً، ولا برأيه، وعلى العكس ، أنه لما أرسل إليه من الشام الرسل أكرمهم، ولكن الأمراء هم الذين عملوا على قتلهم، ثم استطرد يقول: إن دولتكم هى التى أقبلت، ودولتى أدبرت، وهذا شىء كتبه الله تعالى، وإنى ما أخذت السلطنة برغبة منى ، وإنما قومى وعسكرى اختارونى،

ورغبوا فى أن أكون أنا السلطان عليهم، لما علموا من زهدى فى ذلك، فلما تقلدت عليهم، وجب على أن أرد عنهم. ثم أشار إلى سليم أنه مثله قد تربت نفسه فى العز ، ولا تقبل الذل، وقال : وهل لو أرسلت لك أنا وأمرتك أن تكون تحت إمرتى، هل كنت ترضى بذلك، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ، لا أنتم أفرس منا، ولا أشجع منا، ولكن أنت كنت تستحل قتل المسلمين، وترمى عليهم بهذه المدافع والنيران، فكيف بك إذا وقفت بين يدى رب العالمين، وما من ملك وإن تعاظم ملكه، إلا هو لله عبد أصغر، فما أنا وأنت إلا بجملة العبيد.

ولا شك أن سليمًا قد قرر قتل طومان باى منذ أسره له، وإن استبقاه نحو أسبوع ـ وربما ١٧ يومًا ـ تشفيًا فيه، فحب سليم لسفك الدماء كان كبيراً ، ولا يتوقف عن قتل أحد. ومع ذلك، فقد قيل إن سليما لم يكن يقصد قتله، وينوى أن يطلقه ، أو يأخذه معه إلى بلاده، أو حتى يرسله إلى مكه. ولكنه لما سمع أن الناس لا تصدق بمسكه، حنق من ذلك وتحت نصيحة أمراء المماليك أنفسهم، الذين انحازوا إليه، مثل خاير بك والغزالى، فإنه قرر قتله .

ولدينا صورة قتل طومان باى من شهود عيان: فقد أتوا له ببغلة، وأخرجوه عليها، وأنزلوه على مركب ، وعبروا به إلى بولاق. فلما وصلوا به إلى باب زويلة ـ أحد أبواب القاهرة المشهورة وأهمها ـ وجدوا حبل الشنق معداً له. فأسرعوا به وأنزلوه عن البغلة، بقصد شنقه من غير مهلة. فتقدم طومان باى نحو الحبال بقلب جسور، وحوله جنود العثمانية مسلولة السيوف، فطلب طومان باى من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات، فقرأت الناس معه ، ثم قال للجلاد ـ المشاعلى ـ اعمل شغلك . فكان الحبل يقطع به مرتين، وفى كل مرة يعلقوه من جديد، وشنق إلى أن مات . ووضعوه فى تابوت، وغسله القاضى، وكفنه من ثياب أرسلها سليم، ثم صلى عليه، ودفن فى فسقية قبة السلطان الغورى، كما

أرسل سليم ثلاثة أكياس من الفضة، تصدقوا بها عليه فكان شنقه فى يوم الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٢/ ١٥ سبتمبر ١٥١٧ .

وفى الوقت ذاته، أحضر الأمير شربك، زميل طومان باى المخلص فى نضاله للعثمانيين، وكان هو الآخر قد قبض عليه بالخديعة ، بعد إفلاته فقد قصده هو الآخر أحد أصدقائه العربان، واسمه أحمد بن بقر، شيخ عرب الشرقية، فلما دخل لينام، وكانت له عدة أيام لم ينم ، دخل عليه ابن بقر وأعوانه، وضربه بالنبوت فى رأسه، ووقع عليه الباقى وكتفوه؛ وقد ذهب الغزالى إلى ابن بقر وأحضر شربك، وهو مقيد، وأركبوه على بغل، وقيدوه عليه من تحت بطنه .

فلما وصل شربك أمام سليم، تأمله ـ كما يقول ابن زنبل ، فوجده من أكمل الرجال، وهيبته ظاهرة عليه، وشجاعته واضحة، ذو استكانة ووقار وهيبة، وضخامة وحشمة. فأراد أن يختبر كلامه، حتى ينظر عقله. فقال له : لم قاتلتنى فقال له: قاتلت عن مالى وعيالى وعرضى وأولادى وكتاب الله، فأمر سليم بضرب عنقه، وجاءت عياله وغلامه، فاستأذنوا فى أخذه فأذن لهم ، فأخذوه وغسلوه ، وصلوا عليه، ودفنوه فى مسجد المدرسة البيبرسية، فكان قتله يوم قتل طومان باى .

يقول المؤرخ ابن زنبل، كان قتل طومان باى له رجة هائلة، وكأن الدنيا قد انقلبت بسبب موته ، واعتبر يوم شنقه أشأم الأيام، وارتفع الناس بالضجيج والبكاء والصياح فى كل مكان، ويقول ابن إياس: صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف. فكان المصريون من غيظهم يقولون الزجل ، وكثرت المرثيات عليه، ومعظمها من قرض الزجالين والشعراء المصريين .

وبسبب شنق طومان باى على باب زويلة، فإن هذا الباب عرف بباب المتولى أو بوابة المتولى، لعله بسبب أنه كان لقب لطومان باى قبل السلطنة، إذ أن لقب «متولى» ، كان يضاف إلى الوظائف المملوكية المختلفة. وقد اعتاد كل من يمر تحته

أن يتلو صلاة قصيرة على روحه، كما أن رجال الصوفية وأتقياء الناس أصبحوا يسكنونه، وأصبح له شهرة خاصة. كذلك قيل إن بهذا الباب قطعة من الحبل متصلة بخطاف، هى التى شنق بها طومان باى، وذكرها أحد الرحالين الأوربيين،وعلى كل حال ، فإنه منذ قيام الدولة المملوكية، كان يشنق على هذا الباب أعداء الدولة وحتى المجرمون العتاة لا سيما رسل هولاجو الذين كانوا قد شُنقوا عليه، فى أوائل حكم هذه الدولة .

ولم يترك طومان باى غير زوجة واحدة، تزوجت من بعده من رجل مصرى، يقال له الشيخ إبراهيم، بقيت معه إلى أن ماتت، كذلك لم يخلف طومان باى أولاداً ذكوراً، بل ترك ابنة واحدة، عمرها حوالى عشر سنين، توفيت حزناً على أبيها فى العام ذاته. أما عن ثروته، فهو لم يترك شيئاً إلا سيفه ، إذ أنه لا يزال موجوداً فى مصر ، بالمتحف الإسلامى .

ورداً على شنق طومان باى حاول بعض المماليك الانتقام لمقتله، حيث أن أحد أمرائهم ، واسمه قانصوه العادلى، لما سمع بشنق طومان باى، قرر الثأر له، وأن يقتل السلطان سليماً به، واحتال قانصوه بحيلة، فلبس زى العرب ، وأخذ معه جماعة من أهل القوة، ونزل إلى مركب ليلاً، وسار بها تحت المقياس، الذى كان يذهب سليم إليه أحياناً، وجعل له سلماً يصعد عليه، ليقتل سليماً بيده. وبالفعل كاد قانصوه أن يصل إلى مكان سليم، إلا أن حرسه كانوا متيقظين، مما جعل قانصوه يرمى بنفسه فى النيل، فأمر سليم الذى تنبه له برميه بالبندق فلم يصبه، كما تبعته جماعة بقارب، فلحقوه وهو عائم، وقبضوا عليه، ويبدو أن سليماً قد أعجب بجرأة قانصوه ووفائه، فلم يلبث أن عفا عنه، وأخذه معه بعد ذلك إلى إسطنبول .

والقول إن طومان باى حاول بذل الجهد فى سبيل الاستمرار فى النضال إلا أنه قد كان من المستحيل أن تقف الشجاعة وحدها أمام سلاح البارود .

ومع ذلك فقد ظل طومان باى صورة للبطل الفارس الذى تصدى للصعاب مع قلة الإمكانيات .

مصر بعد طومان باى

تغيرت أحوال مصر تغيراً تاماً ، بعد شنق طومان باى آخر سلاطين المماليك، وكأن مصر قد طوت بموته صفحة ناصعة فى تاريخها، لتفتح صفحة أخرى حزينة، لم يقع مثيل لها من قبل، بحيث اعتبرت من أبشع الفترات التى مرت بها، بسبب النتائج التى ترتبت عليها ، لاسيما وأن هدف سليم وخلفه كان القضاء على مقومات مصر السياسية والحضارية ، بجميع جوانبها، حتى أن جرائمه ضدها بقيت، ولم تمح من ذاكرة المصريين إلى وقتنا الحاضر .

وقد بقى سليم فى مصر بعد شنق طومان باى حوالى ثمانية أشهر، بعدها غادرها إلى القسطنطينية (أو اسطنبول) . وفى خلال إقامته فى مصر، أخذ فى زيارة معالمها المشهورة فزار الأهرام، وأعجب بالمقياس الذى بناه الفاطميون، لقياس فيضان النيل وأقام فيه وقتًا، ودخل إحدى الحمامات الكبيرة، التى امتازت بها القاهرة فى العصور الوسطى، فكان أحدها يخدم فيه أكثر من مائة شخص ، وأعجب بها .

كذلك صلى سليم فى الجامع الأزهر وحضر الاحتفال السنوى لفتح الخليج، وذهب إلى الأسكندرية وأمضى بها ثلاثة أيام وقال عنها: إنها إقليم لا نظير له وكانت رحلته فى الذهاب والإياب قد أخذت خمسة عشر يوما ذهابا وإيابا .

وكانت الرحلة بسبب وصول الأسطول العثمانى إلى الإسكندرية، فى يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الآخر (٩٢٣/هـ ١٩ مايو ١٥١٧)، حيث كان مقرراً أن يشترك فى فتح شواطئ مصر لو طالت الحرب مع المماليك، فقام بزيارة قطعه البالغ عددها ٣٠١ وحدة ، وأطلقت المدافع من السفن لتحيته .

وفى أثناء إقامتـه الطويلة فى القاهرة، أصبح يتسلى بـرؤية خيال الظل، الذى كان أول ظهوره فى مصر فى أيام الفاطميين على ما يبدو.

أما تصـرفه الشخصى فى خـلال إقامته فى مـصر فهـو أنه طوالها لم ينصف مظلوماً ولو مرة، وكـان مشغولاً بالسكر، ولا يظهر للجمـهور إلا عند سفك دم، ويصفـه المؤرخون المصريون بأنـه كان من طبعـه أن لا يثبت على قول ، وكـلامه ناقض ومنقـوض، وأنه ما كان له أمـان إذا أعطاه لأحد ، بحيـث ترك فى نفوس أهل مصر مالم يتعود عليه المصريون من حكامهم ، الذين كانوا على خلق وشهامة وخشية لله ، لا سيما آخر سلاطينهم طومان باى .

أمـا عسـاكره، فكـانوا على شاكلتـه ، ليس لهم نظام يـعرف، فـقد سـعى العثمـانيون إلى إفقار مـصر ماليًا بكل الوسائل، بما فـيها النهب . فبـالإضافة إلى أنهم غنموا كل ما كـان حمله الغورى معه من مال وتحف، فـإنهم لما دخلوا مصر عملوا على مصادرة أموال كبار الدولة المملوكية، وحتى مال النساء أيضًا، بما فيهن زوجة طومـان باى ووالدتها، فأخـذوا مالديهمـا من جواهر وذهب وأوانى فضـية ونحاس مكفت «مطعم». وحتى يســود الفقر المصريين جميعًـا، فإنهم منعوا تداول العملة المملوكية، وأصدروا بدلها عملة خفـيفة، لا يدخل فيها الذهب والفضة إلا قليلاً، مـنها عملة ذهبـية أو فـضية اسـمهـا الأشرفى، كمـا أباحـوا الزغـل وهو الزيف، فكانت الإنكشـارية تدخل الأسواق وترمى بفضـة مغشـوشة، ومن رفض قبولهـا تنهب تجارته أو حتى يشنق ولعل سليـمًا جمع جميع الـذهب والفضة من مصر، فـحينما خرج منـها خرج ومعه ألف جـمل محملة ما بـين ذهب وفضة. كذلك ألغى العـثمـانيون دور سك العملة من مـصر ، وكانـت منتشرة فى مـصر والشام ، بل إن سليمًا قد أخذ معه عند عودته إلى إسطنبول معلم سك العملة فى القاهرة .

وفى الوقت ذاته، رسمـت سياسـة عامة، لنهب كل مـا هو قيم فى مـصر،

وحمله إلى اسطنبـول بالطريق البرى على آلاف الجمال، وفى أعـداد لا تحصى من المراكب . فكان أكثر ما نهب من القلعة أو قـلعة الجبل - جبل المقطم - التى كانت مقر سلاطين المماليك بالقاهرة، وجمعت فيها تحف عديدة على مدى ثلاثة قرون، فيما عرف بالبيوت أو الخانات أو الدور، وهى الأماكن الواسعة التى استخدمت إما فى خزن البضائع أو فى صنع الأشـياء، ولم تكن للسلطان وحده، وإنما للخواص من أمرائه ، حـيث تعددت فى أيام المماليـك بشكل لم يعرف قبـلاً، وتمثل درجة كبيرة من الغنـى، بحيث أصبح غناها الفاحش منبعاً للخـيال فى قصص ألف ليلة وليلة، منهـا: الشراب خاناه التى احـتوت على أدوات الشـراب النفيـسة، وأنواع الصينى الـفاخر، والطشت خـاناه الى احتـوت على أدوات غسل الملابس الخـاصة بالسلطان والساكنين بـالقلعة، والفراش خاناه ، وفـيها أنواع الخـيام والسجاجـيد، والسلاح خـاناه أو حواصل الـذخيرة وفـيهـا كل أنواع السلاح، حـتى تلك التى تستخدم فى حـفلات السلطان وكلها مطعمة بالذهب والفـضة والجواهر، إذ كانت توصف بأنها عجيبة من العجـائب ، بها من جميع آلات السلاح من كل نوع حتى من المدافع النحاس، والركب خـاناه، حيث يوجد فيـها كل ما يتعلق مـن معدات ركوب الخيل، والطبل خاناه وفيها أنواع الآلات الموسيقية والأعلام، والشكار خاناه وفيها كل ما يتـعلق بالطيور وبخاصة تلك التى تستخدم فى الصـيد ، هذا غير ما يوجـد فى القلعـة من خـزائن المال والكتب ، وحـواصل وأهراء وهى مـخـازن، واسطبلات للخيل ، ومناخات للجمال، ومطابخ إلى غير ذلك .

فلـم يتـرك سليـم فى القلعة شيـئاً لم يأخذه منها، حتى رخامهـا وأعمدتها ، لا سيما تلك التى فى الإيوان ، وهى قاعة الاستقبال الرسمية.

يضاف إلى ذلك أن سليمًـا شحن إلى بلاده ما أخذه من بيوت الأمـراء قاطبة والأعيان، بل نقل إلى بلاده أعمدة عظيمة من الصـعيد، وأبوابًا مسبوكة من حديد بصناعة بديعة، هذا غير الخيول والنجائب .

ولا شك أن سياسة استغلال جميع موارد مصر على يد العثمانيين، تلك التى بدأت بسليم ، كانت من العوامل التى جعلت مصر تكره هذا الحكم الفظيع .

وفى سبيل القضاء على مقومات مصر الحضارية، سعى سليم إلى أن يفرغها من كل نابه فيها، فسحب منها رجالها الحاذقين فى المهن والحياة الحضارية، ليحملهم معه إلى إسطنبول ، بقصد أن يسخرهم فى تعمير بلاده ، فيذكر المؤرخ ابن إياس أسماء هؤلاء التعساء ، الذين تقرر سفرهم من مصر إلى اسطنبول ، حيث خصص فصلاً فى كتابه لمن توجه منهم إلى القسطنطينية على حد قوله، وهم من جميع نواحى مصر، من المسلمين والقبط واليهود على السواء، منهم: أصحاب الحرف والصناعات، كالمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والسباكين والفعلة، حيث أخذ سليم من هؤلاء جماعة كبيرة جداً، لا يمكن حصر أعدادهم كذلك أخذ سليم الحذاق من صناع السلاح، أو الذين يشتغلون بصناعة النسيج، وهم من الصناع الذين كانوا يوجدون فى مصر بكثرة. كما أخذ جماعة من التجار لا سيما تجار خان الخليلى، بما فيهم التجار المغاربة فى مصر، وحتى تجار الشراب «العصير».

يضاف إلى ذلك، أن سليمًا قد قضى على زعامة مصر الروحية التى استمرت طوال حكم دولة سلاطين المماليك، بنقل منصب الخلافة إلى اسطنبول، وإن كان يبدو أنه قد فعل ذلك تدريجياً. فبعد موقعة مرج دابق، ربما كان سليم قد وعد الخليفة بأن يسيره إلى بغداد، ليعيد إليها مركز الخلافة، مثلما كان الحال قبل انتقالها على يد المماليك إلى مصر ، بعد أن استولى المغول على بغداد. كذلك لاحظ المؤرخ ابن إياس أن الخليفة المتوكل كان صاحب الحل والعقد فى أول أيام فتح العثمانيين لمصر، وأنه فى مقام سلطان مصر، فى نفوذ الكلمة وظهور العظمة، حتى كانت زوجة طومان باى فى بيته .

وبعد أن استفاد سليم من الخليفة المتوكل فى تثبيت فتحه لمصر، تغير خاطره

عليه وأصدر له الأمـر بالرحيل إلى اسطنبول ، مع بعض أولاد عـمه؛ ربما ليقطع جذور أسرته من مصـر نهائياً. فلما وصلوا إلى اسطنبول، فـرق سليم بين الخليفة وأبناء عمه، ولا شك أن السلطان العـثمانى قد وضع قبل سفره الخـطوط الرئيسية لكيفـية حكم مصـر، بعد أن هزم المماليك هزيمة مطلقة، بشنق طومـان باى آخر سلاطينهم، إلا أنه قد قرر فجأة، وعلى غير انتظار، أن تعود مصر إلى المماليك ، ولكن تحت سـيطرته ، وهو نمط الحكم الذى استـمـر فى مصـر، إلى أن سـعى الفرنسيون بمجئ نابليون إلى القضاء عليه، وإن تم القضـاء عليه نهائياً بتولية محمد على الكبـير، حـتى أصبـحنا نميز بين عـصريـن فى حكم المماليك لمصـر، حكم السلاطين الذى انتـهى بشنق طومان باى، وحكم أمـراء المماليك الذى استـمر إلى العصر الحديث. وعلى كل حال، فإن سليمًا قبل مـغادرته مصر اختار له نائبًا فيها من المماليك الجـراكسة، هو خـاير بك، الذى كان السبب فى انتـصاره، بخيـانته لسلطانه الغورى، فـقد ورد فى كتاب توليتـه الذى صدر فى يوم الأثنين (١٣ من شـعبـان ٩٢٣/ ٣١ أغـسطس ١٥١٧): أعطيك هذه المملكـة إقطاعـًا لك إلى أن تموت. ونحن لا نعرف كثيراً عن خاير بك، غـير أنه جركسى، أبوه اسمه يلباى، وأنه ترقى فى أيام قايتباى، كما أصبح فى أيام الغورى من أكبر مساعديه، حتى أنه كان أرسله فى سفارة إلى اسطنبول فى أيام بايزيد الثانى فى ٩٠٣/ ١٥٤٧ ، وظل يترقى فى الوظائف المملوكية، إلى أن أصبح نائبًا على حلب، وإن وصف بأنه كثير الحيل والخداع، منها أنه كان دائـم الاتصال بسليم، يظهر ذلك بوضوح من الوثائق التركية الرسمـية ذاتها، ما جعل سيباى نائب الغورى بالشام يتـهمه بالخيانة، وأراد قتله، إلا أن الغورى لم يوافق على ذلك. وقسم الـسلطان سليم البلاد من الناحية الإدارية إلى مديريات عددها أربع وعشرون مديرية على رأس كل منها أمير مملوكى تكون مهمته فيها جمع المال .

ومع ذلك فإن سليـمًا لم يكن يثق فى خاير بك أو المماليك ثقـة مطلقة بدليل أنه أخذ معـه عند مغادرته مصـر ابن خاير بك نفسه رهينًا، كـذلك قرر سليم مع

خاير بك، خير الدين باشا أحد أمراء العثمانيين وجعله فى منصب نائب القلعة التى كانت مركز حكم مصر منذ أيام الأيوبيين .

وجعل سليم تحت حكم هذا الأمير العثمانى فرقًا من الجيش العثمانى مكونة من خمسة آلاف فارس «سباهى»، ومن الرماة نحو خمسمائة رام ، وقيل عشرون ألف عسكرى من المشاة ـ الإنكشارية ـ واثنى عشر ألفاً من الفرسان (السباهية) فكان رؤساؤهم أو ضباطهم يعتمد عليهم الأمير العثمانى، بما فيهم «الأغا»، أى رئيس الفرقة أو نائبه ويسمى «الكخيا أو الكتخدا» . وربما يكون سليم قد أتاح مع خاير بك لبعض السلطة شخص اسمه، هو جانم الحمزاوى، الذى وصف بأنه من أعيان أبناء الناس ولعله من المصريين، فأصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد، وإن كنا لا نظن أنه قد استمر له نفوذ كبير ولمدة طويلة، مع وجود خاير بك، وأخيراً، فإن سليمًا قد طلب من ابن الغورى ، سيدى محمد، أن يغادر مصر معه، حتى لا يوجد أى مطالب بحق السلطنة المملوكية، لا سيما وأن طومان باى لم يترك أولادًا ذكوراً وقد كان حكم خاير بك فى مصر يتمثل فى تنفيذ أوامر السلطان العثمانى ـ أو ما كان يسمى أيضاً بالخنكار ـ واستقبال القصاد من قبله، حيث كانت تزين القاهرة له فى كل مرة ، ويكلف الناس كثيراً فى ذلك ، وتمشى الناس بالشموع الموقدة ، وتطلق النساء الغناء والزغاريد، وينثرن الحلوى والفضة ومجامر البخور والعود، والطبول والزمور، فيشق القاهرة، محاطًا بالعسكر .

كذلك أصبح همه أن يرسل إلى إسطنبول جميع مال مصر، لا سيما المال الذى كان يجبى على الزرع، وهو الخراج ، مصحوبًا بالهدايا الكثيرة من خيرات مصر، مثل الخيول والأقمشة والسكر والعصفر والحناء والمربى .

ولما اطمأن سليم إلى أن قبضته أصبحت قوية فى مصر، ووجد أنه لم يعد لبقائه فيها لزوم ، غادرها فى (٢٠ رمضان ٩٢٣هـ / أوائل سبتمبر ١٥١٧م) ، وإن قيل إن سبب مغادرته لمصر أنه قد سمع أخباراً سيئة من بلاده، فاستعجل

العودة إليها، وهو على كل حال لم يعد لمصر بعد ذلك. وقد غادر سليم مصر عن الطريق البرى، فى موكب كبير ، قدامه خاير بك والمماليك الجراكسة، وكان يركب بغلة صفراء من بغال الغورى. فوصل دمشق فى (٢٢ من صفر ٩٢٤هـ / ٤ مارس ١٥١٨م)، وصلى فى المسجد الذى أقامه فيها على قبر محى الدين بن عربى، من كبار المتصوفين. وبعدها سافر إلى حلب، ومنها إلى اسطنبول عاصمة ملكه، فوصلها فى (١٧ رجب ٩٢٤هـ / ٢٥ يوليو ١٥١٨م). فخرج لاستقباله الخليفة العباسى ـ المصرى ـ وحتى أعيان مصر الذين كانوا دخلوا إليها، فوجد فى اسطنبول الطاعون، وما لبث أن تركها .

ولما توفى سليم فى يوم الخميس (٩ شوال ٩٢٦هـ / ٢٢ سبتمبر ١٥٢٠م)، أظهر خاير بك والعثمانية الحزن، ونودى فى القاهرة بموته بالتركية والعربية. وعلى العكس ، فإن الجراكسة أظهروا الفرح والسرور لموته ، بسبب أنه كان قد قتل أغلبهم ، كما أظهر المصريون الشماتة، لا سيما وأن موته كان بطيئًا بسبب مرضه، فقد أصيب بحمرة كانت سبب عذابه، ثم موته ، ويقول ابن إياس عن ذلك، إن الله قد أخذه بالعقاب، على ما كان يفعله فى الناس، وتخريب ديارهم .

وبعد سليم ، فإن ابنه سليمان ، الذى عرف مثله بالخنكار ـ وهو من ألقابهم منذ أيام دولة سلاطين المماليك ـ فإنه جعل هو الآخر خاير بك نائبا عنه فى مصر.

ومع ذلك، فإن سيطرة العثمانيين فى عهد سليمان هذا، كاد يطاح بها فى الشام ، ثم فى مصر، لولا همة خاير بك بالذات، الذى عمل على إحباط ذلك، ليبقى الشام ومصر تحت سيطرة العثمانيين الدائمة، فكان تصرفه بهذا الخصوص يدل على مدى ولائه الذى لا يحد لهم، وسبب بقاء استعمارهم فى الشرق الأوسط على مدى القرون التالية إلى العصر الحديث .

وعلى كل حال، استمر خاير بك يحكم فى نيابة مصر فى عهدى سليم ومن بعده سليمان، لمدة خمس سنين، بالحديد والنار، بحيث كرهه المصريون كرهًا

شديداً، وتمنوا موته، إلا أنه لما تزايد المرض عليه فى آخر أيامه، تحرك ضميره، فعمد إلى عتق جواريه وعبيده ومماليكه ، وفرق المال على الفقراء والمساكين ، وأخرج المحبوسين من الرجال والنساء، وكان عددهم كبيراً، بما فيهم الفلاحون، وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات، بحيث ذهل الناس من تصرفه هذا الفجائى ، فلم يروا فى أيامه أحسن من هذه الأيام، ولما اشتد المرض عليه، الذى استمر مدة، حيث توفى بنفس مرض سليم الذى كان السبب فى عذابه هو الآخر، وذلك فى يوم الأحد (١٤ ذى الحجة ٩٢٢هـ / ١٥٢٢م).

ونتيجة لاختفاء طومان باى امتدت دولة العثمانيين إلى الشرق العربى أيضاً ، فشملت أرجاء شاسعة فى أوروبا وآسيا وأفريقيا، مشتملة على النفوذ والسيطرة فى بحار عديدة: مرمرة وإيجه والأسود والأبيض والأحمر.

ولا شك أنه بسبب اتساع دولتهم إلى أقطار عديدة فى القارات الثلاث يرجع بالدرجة الأولى إلى تطويرهم استخدام الطاقة الحربية، مما جعلهم يقومون بنجاح بحروب مدمرة ضد شعوب كثيرة. ومع ذلك ، فلابد أن نعترف بأن مصر كانت أول من استخدمت البارود كطاقة وطوعته فى الحرب، إلا أنها لم تستخدمه ضد المسلمين بأية حال؛ حتى فى أيامها الحرجة فى صراعها مع العثمانيين، على أساس أنه سلاح محظور استخدامه ضد المسلمين بسبب طاقته التدميرية القوية، بينما العثمانيون لم يترددوا فى استعماله ضد المسلمين وغير المسلمين بدون تمييز .

وكانت سيطرة العثمانيين فى الشرق العربى، مما جعلهم ينقلون إلى أقطاره أسلوبًا جديداً هو الأسلوب التركى، بدليل أن اللغة التركية صارت هى اللغة الرسمية فى أرجاء البلاد العربية. ومع ذلك، فهل كان العثمانيون فى أول أمرهم يقصدون من فتوحاتهم فى الشرق العربى وحدة إسلامية بزعامتهم، وجدت قبولاً

من شعوبه، بما فيهم شعب مصر، بل إن سليـمًا كان ينوى أن يجعل اللغة العربية لغة قومية للترك .

ولنا أن نقرر أن التـدهور الذى أصاب مصر فى أيام العـثمانيين، تبعـه بالتالى تدهور مماثل فى الأقطار العـربية الأخرى، حـيث استقـر الحكم العثمـانى للشرق العربى زهاء أربعة قرون .

ولقد هزم طومان باى على يد العثمـانيين، وبه انتهت دولة سلاطين المماليك، إلا أن سيرته بقيت سيرة عطرة وقصته اعتبرت من قصص البطولات الإنسانية .

* * *

المراجــع

ابـن زنبـل الرمال : تاريـخ السلطان سليـم العـثمـانى مـع قانصـوه الغـورى، دار الكتب المصرية.

إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة.

أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر.

ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور.

حسن عثمان : مصر العثمانية.

ابن زنبل الرمال : آخر المماليك.

سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام.

عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك.

مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر.

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة.

عبد المنعم ماجد : آخر سلاطين المماليك فى مصر.

محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى.

محمد رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

من سار فى شوارع القاهرة القديمة أذهله ما يراه من مساجد وزوايا وعمائر ومشربيات وأسبلة تنتمى إلى العصر المملوكى الذى بهر العالم كله فى العمارة والفروسية .

وكتابنا هذا (طومان باى) فيه عبق هذا العصر، إنه عن آخر سلاطين المماليك فى مصر .

إنه صورة لعصر عجيب، وتاريخ لشخصية لايزال يرن صوتها بين جنبات مصر المعاصرة، وتسجيل لتحول مصر من حكم المماليك إلى الحكم العثمانى .

ولعل بوابة مصر الشامخة باب زويلة (بوابة المتولى) شاهد على هذا العصر الذهبى فى العمارة والفروسية والنبل .

الناشر



